
سلسلة
عازف البيانولا
٢
روايات أسطورية.. تتجنب الواقع
الدَّوَّارْ
نبي هذا العصر
محمد
حياه

سلسلة

عازف البيانولا (٢)

روايات أُسطورية.. تتجنبُ الواقع

للكاتب

محمد حياه

المقدمة العامة للسلسلة

خلقَ اللهُ الكونَ يُكملُ بعضـــه بعضًـــا، على الرغمِ من اختلاف خصائصه، وله في ذلك حكمة، فلا يسودُ شيءٌ على شـــيء، ولا يصــلُ شـــيءٌ إلى الكمال، فتجدُ الجنةَ والنار.. الشــتاءَ والصــيف.. الخريفَ والربيع.. الرجلَ والمرأة.. النهارَ والليل.. فلا يصــلُحُ الكونُ بجزءٍ واحدٍ فقط، بـل يجـبُ أن يوجـدَ الجزءُ الآخر حتى يحـدثَ التوازنُ الكونيّ، كـذلـك الحزنُ والســـعـادة.. يجـبُ أن يوجدَ الحزنُ حتى تشعرَ بالسعادة.

وذلـك الـذي بين يـدك -عزيزي القـارئ- أقربُ مثــالٍ لذلك، فكُنْ من المُستمتعين برواياتِ البيانولّا.

الراوي: عازف البيانولّا

الأسطورةُ الثانية

الــدوار

"نبيّ هذا العصر "

كُتبَ الحوارُ بأسلوب الزجَل المسرحيّ

"يا ابني الدنـيا دي زي النَّعْش بس متذوّق

وقلتك دي زينة كدابة ولا عاد فيك يحـوّأ

مــش راح تديــك الدنيــا شيء بمــزاجك

ماشيــة معــاك بنــيّة شــوّق ولا تـــدوّق"

الحاج صابح المعدّاوي

تتدللُ نسمةٌ مبتسمةٌ لضوء الشمس الدافئ، وتذوب بين جناحي طيرٍ يغرّدُ بنشـوة، فتتمايلُ وتتراقصُ لها الغصونُ من حوله، وهو يهيمُ عشقًا في اللون الأخضر الذي يجتاحُ اليابسَ تحته، فتلمعُ عيناهُ فرحًا بنعمة الخالق، وتجذبُهُ موجات رنينٍ للحنٍ يستأنسُه، فيطيرُ مسلوبَ الإرادةِ في اتجاه هذا اللحن الرنّان، ليجدَ مجموعةً من البشر من مختلفي الأعمار يتجمّعون حول رجلٍ يرتدي زيًّا بشريًّا غيرَ متناسقٍ ليس كما تعوّد أن يراهُ في تلك البقعة من الأرض، فالزيُّ الرسميُّ الذي يعرفُه هنا هو الجلبابُ والثوبُ والعِمّةُ والشال، زِيٌّ يرتبطُ بطبيعةِ تلك المِنطقة المُنتسبة إلى النّمط الريفيّ.

أما عن زِيّ هذا الراجل فهو غريبٌ بشكلٍ كبير، رجلٌ لا يكادُ يقفُ على قدميه يُقدّر أنه في الستين من عُمرهِ يظهرُ بملبسِهِ القديمِ الجديد الغريب، يلبسُ ثوبًا أسودًا وعليه سُترةُ عازف الأوركسترا ذاتُ الذيلِ الطويل، وتعتلي رأسَه قبعةُ الساحرِ السوداءِ الإنجليزية الأصل، يبتسمُ لكلِّ من حولَه وهو يتمايلُ على أنغام الصندوقَ الأسود الكبير الذي بجانبه، ذلك الصندوقُ المُميّزُ بلوحةٍ ذاتِ نقوشٍ لوجهِ طفلٍ مبتسمٍ وعيناه تلمعُ من

أثر الدموع، لا تُعرفُ تلك الدموعُ هل هي دموعُ فرحٍ أم دموعُ حزن!؟ ولكن مع كل ذلك تخطفُكَ يدُ الرجل وهو يُديرُ مقبضًا دائريًا بجانبه فيتمايلُ ويرقصُ على تلك الأنغامِ الصادرةِ من صندوقِه، التفَّ حولهُ الناسُ بشغفٍ واضحٍ منحوتٍ على ملامِحِهِم، فالأطفال تتراقصُ فرحًا حول ذويها الذين يتمايلونَ معهم ويصفقونَ بشكلٍ شِبهِ مُنتظمٍ على أنغام تلك الآلة الموسيقيّة العجيبة العتيقة، حتى توقّف هذا الرجلُ عن إدارةِ المقبضِ فتوقّفتْ معهُ الموسيقى وصمتَ بعدها الجميع، فنظر إليهم في عيونِهِم وأردف يقول:

"اصطبحنا واصطبح المُلك لله
والحمد لله على نعمة الحياة
يبقى لازم العبد يسَبّح بحمده
حتى لو ربه في يوم ابتلاه"

وعجبه، قولوا الحمد لله..

ردَّدَ الجميعُ بابتسامةٍ والرضا على وجوهم:

- الحمد لله

فأكمل حديثَهُ قائلًا:

- أنا اســـمي راوي هيثم رغّاي، شـــغلتي حكّاي على باب الله، واللي على باب الله يســعَى، وأنا مش جاي أبيع الهوا ياللي مِســـتغرب منظري، أنا هاحكي حكايتي وأمشــي ولا عايز مِنّك قِرش ولا مِنّك لُقمة، اسرح بخيالك معايا خلي خيالك هو صندوق الدنيا، ادخل جوّاه واتفرج على حكاياتي وأنت بتسمع أنغام البيانولا، هاتفرق كتير صدقني، ويارب منها تستفيد وتفيد، خلاص مستعدين، قولوا أيوه.

ردَّدَ الجميعُ بشغف:

- أيوه

أمسَـــكَ المقبضَ مرةً أخرى وبدأ في إدارتِـهِ ليبدأ الصندوقُ في إصدارِ النّغمات الموسيقيّة المنظمة ويبدأ الرواي حديثَه معها قائلًا:

- "بعد السلام والصلاة على سيد الأنبياء، نبدأ حكايتنا بصـوت عذب، يرفع الأذان لإقامة الصـلاة، يخرج هذا الصـوت العذبُ من شيخٍ مُسنٍّ قد أخذَ منه الدهر

ما أخذ، يَشِعُّ وجهُهُ نورًا رغم شقوق الزمنِ الظاهرةِ على وجهِه، يرتدي جلبابًا أخضــرًا، تنســدلُ لحيتُهُ البيضاءُ على صَدرهِ، ويداهُ مرفوعتان بجانب أذنيه، تتنغّمُ شـفتاهُ بكلمات الأذانِ باسـتمتاعٍ شـديد، وما أن قاربَ على نهايتِـهِ حتى ظهر الإمـامُ واقفًا بجـانبِـهِ، وهو رجلٌ في أوائلِ الخمســينِ من عُمُره، شـــاحبُ الوجهِ وقد فارق الســـوادُ لحيتَهُ القصـــيرة فاحتلها الشيبُ، يقفُ خاشعًا يَؤمُّ خلفَهُ ثلاثةَ رجالٍ وامرأتين، وما أن بدأ الصـــلاةَ حتى اختفى الشـــيخُ المؤذنُ من جانبه تمامًا، ولكنّه أكملَ الصــلاةَ دون أن يتوقّفَ أو يتأثرَ باختفاء هذا الرجلِ المُسـنّ، حتى وصـلَ لختامِ صـــلاتِهِ بالســـلام يمينًا ويســـارًا ثم مدَّ يدهُ في جيبِ جلبـابِـهِ الأبيض ليُخرِجَ منـه سِـــبحتَـهُ ذاتِ الأحجارِ الخضــراء ويبدأَ بترديدِ كلماتِ التســبيح وبالأخص (الحمدُ لله)، وتمرُّ أحجارُ سِــبحتِهِ بين أصـــابعِ يديهِ بسـهولةٍ وانسـيابيّةٍ مرتبطةٍ بسـرعة ترديدهِ للتسـبيحِ كأنها أمواجٌ تتدلّلُ في الخليجِ العربيّ.

عندما أنهى أولَ دورةٍ من التســـبيح تفاجَأ بنكزةٍ على كتفِـهِ الإيمنِ فيلتفتُ ليجدَها من أحدِ المصـــلّين خلفهُ،

ولكنه تحوّلَ إلى كائنٍ غريبٍ فأصــبحَ مثل العائدين من بعد الموت الذين ينتمون إلى ما يسـمونـه "الزومبي" أو الموتى الأحياء، عيناهُ مثلُهُم، يشـــبهُهُم حتى في لعابِهِ المُقزّزِ الســـاقط من فمه بغزارة، لونُ بشـــرتِهِ شـــديدُ الشـــحوبةِ وقد تأثّر كثيرًا بدودِ الأرض الماصّ لمعالم حياة أي شـيءٍ يسكُنُ موطنِهِ الأرضـيّ، العيونُ جاحظةٌ ترغب في الموتِ عن الحياة، الحركاتُ الانفعاليّةُ غيرُ المُنسقةِ أو ذاتُ المدلول الغريب، شهقَ الإمامُ فزعًا مما رأهُ ولم يسـتطِعْ أن يفعلَ شـيئًا حتى وجدَ مَن باغَتَهُ من الجانب الآخر ووخزَ كتفَهُ الأيسـر، التفتَ ليجدهُ الرجلَ الثاني الذي كان يصـــلي خلفَهُ والذي تحوّل من طبيعتِهِ البشـريّة فأصبحَ حالُهُ مثلَ حالِ من بجانبه، يزومُ بكلامٍ مُبهَمٍ وينظرُ لـه بعينينِ فـارقتهُمـا الحيـاةُ فبدتَـا مفزعتين لأبعدِ حد، ظلَّ الإمامُ ثابتًا مكانَه لا يستطيعُ تحريكَ يديهِ أو قدميْهِ وقدْ أصيبَ بشلَلٍ حركيٍّ لا يملكُ أن يتحكمَ في عضـــلةٍ واحدةٍ من أطرافِهِ، لم يســتطِعْ حتى أن يُبعدَهُم عنهُ أو أن يقومَ من جِلستِهِ ويهربَ بعيدًا، وظلتْ شفتاهُ بشــكلٍ تلقائيٍّ غريبٍ تردّدُ تســبيحَهُ بقولِهِ "الحمدُ لله"،

ويداهُ تســـتمرُّ في عدّ أحجارِ ســـبحتِهِ الخضـــراء دون توقّفٍ أو تحكّمٍ فيهما.

ينقضُّ هذان الشخصـان عليه ويُمسكان بذراعيْهِ فتفلتُ من يـديـهِ ســـبحتُـهُ وتقعُ بعيـدًا عنهـا فيُرغمـاهُ على أن يســـتلقيَ بظهرهِ إلى الخلفِ فيفترشُ الأرض، ثمّ يثبّتاهُ على هذا الوضع حتى يجدَ من يُمسكُ قدميهِ من الأسفل، نظرَ ليجدَ الرجلَ الثالثَ المتبقي وقد تحوّلَ مثلَ ســابِقيْهِ ويمسكُ قدمَهُ اليُمنى، بينما أصبحتْ إحدى المرأتين هي الأخرى مثلَهم "زومبي" تُمسكُ قدمَهُ اليسرى، يحاولُ أن يُفلِتَ من قبضـــتِهِم، لكنه أصـــبحَ فاقدًا للأهليّةِ في التحكّمِ بـأطرافِه، وفي ظلِّ كلِّ هذا ظلتْ شـــفتاه تردّدا "الحمدُ لله" ولا يستطيعُ حتى أن يصمتَ أو يصرخ، لا يتحكّمُ إلا في عينيهِ التي تطوفُ في المكان مُرتعشةً في ســـرعةٍ تراقبُ ما يحدُثُ له، حتى وجَدَ المرأةَ الباقيةَ تقفُ بجانبِهِ على صـــورتِها الطبيعيّةِ البشـــرية الحية مثلَه، وليســتْ مثلَ البقيّةِ من قبيلة الموتى الأحياءِ تميلُ برأسِها مبتسمةً له، ثمّ تشيرُ لهم بسبّابتِها في اتجاه مكانٍ معينٍ ليس بعيدًا عن مرقِدِه، فيمســـكُ الرجالُ الثلاثةُ

والمرأةُ بأطرافِ الإمامِ ويحملونهُ ويتحركون في نفس اتجاه المكان الذي أشارت له تلك المرأةُ التي تتقدّمُهُم سيرًا، حتى وصلوا به إلى طاولةٍ خشبيّةٍ كبيرة، فتشيرُ لهم تلك المرأةُ بأن يضعوهُ عليها فيفعلُوا كما أُمرُوا، ويثبّتونَهُ وكلٌّ منهم ممسكٌ بطرفٍ من أطرافِهِ، يداهُ وقدماه مشدودتان ومقيدتان كأنه مصلوبٌ على الطاولة، وفي أثناءِ كلِّ هذا لم تزلْ شفتاه تُرددان تسبيحَهُ دون انقطاعٍ وعيناهُ تزدادان جحوظًا وخوفًا، فتحركتْ تلك المرأةُ من جانبِهِ حتى أصبحتْ رأسُ الإمام أمامها وهو يرفعُ رأسَهُ للخلفِ محاولًا رؤيتَها بشكلٍ عكسيٍّ، ففاجأته ومدّتْ يديها على جانبي رأسه وقبضتْ عليها بشدةٍ لتثبتهُ ودَنَتْ منهُ بوجهِهَا الغاضبِ المقلوبِ أمامهُ ليرى عينيها التي اشتدتْ احمرارًا وأنفاسَها الساخنةَ تحرقُ شعرَ رأسِهِ، ثم صرختْ قائلةً:

- كُلُوا يا عيال كُلُوا لحد ما تشبعوا.

انقضَّ الرجالُ الثلاثةُ والمرأةُ الأخرى وبدؤوا في نهشِ لحمِ الأمام في نهَمٍ كأنهُمْ يفطرونَ بعد صومٍ منذُ قرونٍ منتظرين أنْ تنطقَ تلك المرأةُ أذانَ مغربِهِم الخاص

على طريقتِها عندما قالت تلك الكلمات، ومع هذا الافتراس الوحشيّ ظلتْ شفتا الإمام تُرددُ في هدوءٍ الذِّكرَ يقول: "الحمدُ لله.. الحمدُ لله.. الحمدُ لله" فيعلو في تلك اللحظةِ صوتُ الأذان الذي جعل الإمامَ يقاومُ صارخًا ويجاهدُ هذا الافتراس الوحشيّ ليجدَ نفسهُ في فِراشِه، نعم تلك غرفتُه، جسدهُ تحت الغطاءِ كاملٌ لا ينقُصُه جرامٌ وبجانبه زوجتُه في سُباتِها المعروف، لا أحدَ سواهما بالغرفة، لكنَّ صوتَ الأذان ما زال مستمرًا، إنه بالتأكيد صوتُ أذان الفجر، نهض الشيخُ من الفراشِ وهو يخاطبُ نفسه قائلًا:

- "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وسبحان العليّ العظيم، دا كابوس دا يا عويضة ولا رؤية؟.. أكيد رؤية هو اللي يشوف الشيخ "صابح المعداوي" في المنام.. ويكون هو المؤذّن اللي بيقيم الصلاة وأنا جانبه الإمام.. عُمره مايبقى كابوس.. هي رؤية من غير كُتر كلام.. شروط الرؤية متوافرة.. نايم على جنبي اليمين.. متوضي وقايل أذكار الليل والمعوِّذتين.. وصحيت على أذان الفجر.. يعني

المفروض دا خير مش شـر.. بس إزاي يكون خير؟ إن ولادي الأربعـة يتـأمروا عليـا ويتكـاتلوا عليـا.. وينهشـــوا في لحمي بـأمر من أمهم "صـــبريـة".. وتكون دي رؤيـة خير مش شـــر.. دي رؤيـة ولا كابوس؟ مش عارف أرسى على بر".

****

بعد أن انتهي عويضــة من أذكار الصــباح التي أعقبت إقامته لصلاة الفجر، وَجَدَ زوجتَهُ "الست صبرية" تمرُّ أمـامـهُ، هي رفيقـةُ عمره وحبيبـةُ أيـام الصّـــبـا، تتميزُ ملامحَهَا بأصـــالتِها الريفيّة المعهودة، وعلى الرغم من أنها أمٌّ لثلاثةِ رجالٍ وفتاةٍ واحدة إلّا أنَّها ما زالتْ تحتفظُ بــالكثير من مميزاتِ أنوثتهــا، أولُهــا الثقــةُ بــالنّفسِ والغرورُ بـالفطرة، فهي ابنـة العمدة الســـابق وشـــقيقةُ العمدة الحالي، تملكُ ما لا يقلُّ عن ما يملكُهُ عويضـــة من أراضٍ زراعية، ولكنّها تشعرُ دائمًا أنها أفضلُ منه، فهي ابنـةُ الســـلالـةِ العريقـةِ صـــاحبـةُ النفوذِ على أمدِ الدهر، وقد أثّرَ هذا كثيرًا في شخصيتها رغم أصولِها الريفيّة، لكنّها برجوازية الهوى أرســـتقراطيّة الفعل، فهي ليس لديها أصـــدقاءٌ في دائرةِ علاقتِها فقط، وإنما تتلخّصُ علاقاتُها في أسرتِها وأسرةِ أخيها العمدة؛ لأن من وجهة نظرها هذا هو المستوى الذي يجب أن تكونَ عليـه العلاقـةُ ومـا دون ذلـك تتجنبُهُم، فهُم مـأجورون مـأمورون، وحتى لو كـانوا من أصـــحـاب النفوذ ولكن بالمقارنـةِ الحســابيّة البسـيطة فإن لديها فهمٌ أقل منهم لا يليقوا أن يختلطوا بهم، ورغم أن مستوى تعليمها توقّف

عند الثانوية التجارية، إلا أنها تنظرُ إلى الآخرين كأنها حاصلةٌ على شهادةِ الزمالة من جامعة أوكسفورد.

وكان زوجُها عويضة عكس كل ذلك، وكان هذا سببُ خلافِهما الدائم، فهو يصادقُ الجميعَ وعلى علاقةٍ جيدةٍ بمختلِفِ مستويات أهالي القرية، وكانت شهرتُهُ تأتي من كثرة الحمد في حديثه، لقد كان يردّدُها كثيرًا في أحاديثِهِ أو إذا جلس وحيدًا، فلقد كان ترديدهُ لها مُلفتٌ بشكلٍ كبير مما جعلهم يلقبونه بـ "الحج عويضة أبو الحمد"، وها هو عويضة رغم انشغاله برؤيا أمس الغريبة، إلا إن ذلك لم يمنعْهُ من متابعةِ زوجتِهِ بلهفةٍ وشوقٍ وهي واقفةٌ أمامه كقبطان أسطول روسي يتابع جنودهُ في عرض البحر، مع الاختلاف أنها في ساحة الدّوّار تتابعُ خادمتيها "أُم عواطف" وبنتها "فرحة" في أثناء تحضيرِهما لمائدةِ الإفطار، فقام من جلسته واتجه ناحية مائدة الإفطار وعيناه يملأهما الشوق لها فلاحظت نظراته دون اكتراثٍ منها واقتربت منه ببرودٍ وناولتْهُ صحنًا به خبزٌ قائلة له في عُجالة:

- خد يا عويضة ده عبال ما أروح أصحي الواد هلال.

فردَّ عليها ساخرًا:

- هلال؟! يا زين ما خَلَفتي من العيال، ولا ليه لازمة طول النّهار نايم.. تَعبان.. كَســلان.. هو أول واحد ياخد شــهادة ولا إيه؟ مِتكبّر علينا كده ليه؟ ولا مَرة قال أنزل مع أبويا.. أراعي ماله وأسـاعد عبد العال أخويا.. ومســتني وظيفة الحكومة.. هَهَأ يا حكومة.. هو فاكر نفســه ابن دكتور في الكليّة ولا ابن العميد لجل ما يتعين مُعيد.. ماهو الامتياز في الشــهادة مالوش علاقة بامتياز الأصــل.. مش لازم يعني في حديت ده نعيد ونزيد.. مالناش غير نقول الحمد لله.

تركته صبرية غاضبة ليكملُ حديثَهُ، فهو يتحدثُ عن الابن القريب من قلبها، ذهبت إلى غرفةِ هلال فقابلها ابنها عبد العال خارجًا من غرفتِه فألقي عليها السلام وهو ذاهبٌ إلى مائدةِ الإفطار:

- صباح الخير يا ست الناس.

ألقت عليه نظرةً غاضـبةً واسـتمرت في طريقها بتأفّفٍ دون أن تردَّ عليه، فأكمل طريقه ليجد عويضـــة مرحبًا به قائلًا:

- صـــباح الخير والصـــحة العال يا عبد العال، تعالى كُلّك لُقمة دا أنت بتبقى طول النهار من مكان لمكان، بتِحرِت ورا الأنفَـار وتِزعج بـالكـام فـدان، وترجع شقيان همدان، إحمد المولى دايمًا على صحتك يقلب عتمتك سما صافية مشقشقة.

تقدم عبد العال ليقبلَّ يدَ والدهِ ثم قال:

- ربنـا يخليك لينـا يـا حج ويـديم علينـا الصـــحـة اللي بتقوينا على الشقى.

جلس عبـد العـال وبـدأ في تنـاول فطوره في نَهَمٍ حتى ظهرت خلفَـهُ أختـهُ "حَفيظـة" قـادمـةً في تريّثٍ تـداعب يداها خصــلات شــعرها الســوادء الناعمة، وهي تربطُ المنديل المطرّز باللون الأحمر والأخضـر على رأسـها، وعيناها البُنيتان الواسعتان التي ورثتهُما عن أمّها تنظرُ بهما في حياء لخطواتها المقتربة من مائدة الإفطار التي

يجلسُ عليها أخوها عبد العال ووالدُها عويضـــة الذي بدأ في قصيدة تدليله لها كعادتِه قائلًا:

- يا صـــباح القمر اللي دلاله وحســـنه وجماله مافيش زيـه اتنين.. عقبـال مـانشـــوفلك عريس زين يملا العين.. ولا يكون طمعان فينـا.. راجل كده ونِفســـه عزيزة.. ويسعدك ويريحك يا بت يا حفيظة.

تقدمتْ مُســـرعةً وقبّلتْ يدَ والدِها واحمر وجهها يشـــعُّ نـارًا رغم بياض بشـــرتِها الصـــافي، لملمتْ خجلَها وذهبتْ مُسرعةً لتجلسَ بجوارِ عبد العال ناظرةً للأسفل مُبتسمةً وقدماها تتراقصان فرحًا أسفل المائدة فنظرَ لها عبد العال في غيرةٍ وأردف قائلًا:

- إيـه يـابـا الحج حـاتخليني أغِير إنّـك خلفتني راجـل.. الدلع والدلال كله للست حفيظة لأ كده مش قابل.

- يـاولا هي يعني جت بـالســـاهل.. دي جت بعد تَلَت صـــبيان جت تنور دنيتنا بحنيتها وجَمالها.. وبعدين مـاحدش يقدر يفرّق حُبـه على عيـالـه بمزاجـه.. كل واحـد فيكوا ليـه حتـة مني.. إنـت يـا عبـد العـال مثلًا

دراعي اليمين اللي محافظ على مالي وبيصـــونه.. وهلال برغم شـــقاوته وحيوته وجنونه.. بحس إنه رجليا اللي بتجري في الدنيا بدون جامح.. والدكتور جلال الدكتور الناجح.. هو ظهري المشـــدود اللي بيخليني أمشـــي وراســي مرفوعة لفوق.. أما حفيظة دي عيني اللي بشـــوف بيها حلاوة الدنيا اللي لازم ليلاتي منها أدوق.

وهنا نزل من على الدَرَج الدكتور جلال مُهندم الملبس بعويناته المُميزة بدون إطار خارجي يُعدل وضعها بين الحينِ والآخر بطريقةٍ عفويّة، يمسكُ في يديهِ اليسرى حقيبة جلد سوداء، مرَّ بطاولة الإفطار متجاوزًا إخوتيه دون أنْ يعيرَهما أي انتباه كأنه يتلاشاهما حتى وصل إلى والده عويضة الذي يترأس مقدمة الطاولة ليقبلَ يدهُ بتردّد ملحوظ، ثم وقف مسرعًا لينصرف، لكنه تفاجأ بوالدِهِ يقبضُ على ذراعه متسائلًا:

- إيه يا دكتور جلال مش ناوي تفطر معانا برضـــه النهاردة؟

- إنت عارف يا والدي إني ماليش في الفطار ده.. ربنا يعفي عنكم.

رد عبد العال متهجمًا على ما بَدَر من أخيه جلال:

- يعفي عنّا؟! ليه بناكل جيفة؟ هو دا اللي بناخده منكم.. مِتعلمين وفاكرين مُخاخكم نضيفة.. وهي لابسة تُوب العَنتظة الهشة اللي مالهاش جِدر في الأرض.

صرخ فيهم عويضة غاضبًا بقوله:

- إنتوا حاتتخانقوا قدامي مع بعض.. روح يا جلال عيادتك ربنا يهديك وقول الحمد لله.. وإنت يا عبد العال كمل أكلك، مِد إيديك وقول الحمد لله.

خرج جلال من الدَوُار وأغلق خلفه الباب ثم وقف ليُخرجَ من جيبِهِ منديلًا ليمسح فمَهُ مشمئزًا من آثار تقبيل يدِ والده فهو مريض بالوسواس القهري -هوس النظافة والخوف من الجراثيم- ثمَّ أخرج معطرًا صغيرًا

وعَطّر به يديه جيدًا ثم بدأ في طريقه، وعبد العال أخوه يحاولُ أن يمتصَّ غضبَهُ وينفذَ أوامرَ والده غَصبًا، فهو في الوقت الحالي لا يريد أن يدخلَ مع والده في خِلاف حتى ولو كان بسيطًا، وبجواره حفيظة شاردةٌ في انعكاسها على زجاج النافذة التي أمامَها تتأملُ جمالَ عينيها وتشحنُ نرجسيّتَها اليقظة دون أن تهتمَّ بما كان يدورُ من حولِها منذ لحظات، ومن بعيد تقدمتْ صبرية وخلفها خادمتَيْها أُم عواطف وبنتها فرحة يحملان ماتبقى من أطباقِ الإفطار من عدة فطائر ساخنة تُشع بريقًا من انعكاس السمن عليها وأطباق عسل النحل ذهبي اللون والجبنة البيضاء كالثلج والبيض المسلوق، فأشارت لهما بأماكن توزيعهم على الطاولة فنفذوا ما تقوله في صمت، وحين انتهوا رمقتهم بعينيها فانصرفوا من أمامِها مهرولين، ثمَّ جلست بجوار عويضة الذي مازحها قائلًا:

- إيه الجمال ده يا ست صبرية.. يا عيال الموضوع مش هِّين وسهلة كِده العملية.. شوفتوا أمكم مَارشال بينظم صفوف جيش مش تحضير عادي للفطار..

النظام يا عيال هو اللي خلى الدول الكُبار يفضـــلوا كُبار.

نظرت له صبرية بغضبٍ يعتلي جبهتها وقالت:

- ماباخدش منك غير الهزار والمألسة.

جاوبها عويضة مكملًا مزاحه معها:

- دا أنا حاسس إني في أكبر مؤسسة.

مال عليها وابتســم، فبادلته هي ابتســامةً صــفراء، ثم التفت حوله كأنه يبحثُ عن شخصٍ معين ثم عاد بنظره لها يسأل:

- برضه هلال مش عايز يقوم من غفلته.. ينزل يسعى لجل ربنا ينور سكته.

ردتْ عليه والغضب يتقافز على وجهها:

- ســيب الواد في حاله يا عويضــة.. الواد مش ناقص كُتر عتاب وعِند.. وعلاجُه مافيش ليه غير طريقة وحيدة.. واللي حايعالجه مش أي حد.

نظر لها عويضة مستغربًا ما قالته ثم دنا منها وسألها قائلًا:

- هو هلال مريض بإيه إن شاء الله؟

التفتت حولها متوجسة خوفًا ودنت منه هي أيضًا وقالت بصوتٍ خافت:

- الواد هلال والعياذ بالله معموله عمل بوقف الحال.. وفي ولي في كفر أم عنبر.. بيقولوا قادر، اسمه الشيخ أبو حبتر.

نظر لها متجمدًا ثم نظر لعبد العال الذي كان منصتًا لما يدور، بينما حفيظة لم تزل تتأمل جمال بشرتها في انعكاسه على المِرآة دون أن تعبأ بما يحدث حولها، ثم عاد ينظر لحفيظة بنفس جموده الذي انقلب فجأةً وانفجر ضاحكًا ساخرًا مما قالته فانتشرت في وجه حفيظة شلالات احمرارٍ من الغضب لتنذرَ من انفجار بركان من الغضب ولا يقطع لحظة الانفجار إلا الطرقُ المفزعُ على باب الدوار الذي لم يقبلهُ أيٌّ من الموجودين، ذهب عبد العال غاضبًا ليعرفَ من يقوم

بهذا الإزعاج غير المقبول ليتفاجأ بصابر -أحد الفلاحين العاملين في أرضهم- يلاحقُ أنفاسَهُ المتسابقة مع دقّات قلبه ووجهُهُ وملابسُهُ ملوثةٌ بأتربةٍ سوداء، ورغم أن عبد العال تفاجأ بما وجده عليه إلا أنه صاح فيه قائلًا:

- إنت اتجننت يا واد يا صابر، إزاي تفزعنا بخبطك الزفت ع الباب.

حاول صابر أن يهدِّئ صدره قليلًا ثم أردف قائلًا:

- لا مؤاخذة يا سي عبد العال، لكن في مصيبة هباب.
- خير يا جلاب الطين.
- أرضكم القبلية النار بتتقلب فيها شمال ويمين، مش عاتقة الأخضر والأصفر فيها، حاولنا كتير بالمايه نطفيها، وعملنا محاولات كتير ومش نافعين.
- صباحك بهيم يا جلاب الطين، إلحق يابا النار بتاكل في أرضنا.

يســـقط الطعام من يد عويضــــة وينهض مهرولًا خلف عبد العال ولده وصابر مراقب الأنفار بالأرض.

****

ظلت صــبرية تتأفّف مع الكثير من السُــباب واللعنات والدعوات على ما حدث، وكانت اللعنات على حظها العَسِر لها نصيب الأسد منها وهي تلتهم الصحن الذي أمامها بشــراهةٍ مبالغةٍ كأن حظها العَسِــر ســقط في صــحنها صُــدفة لتكون نهايتُهُ على يدها من تعذيب الالتهام أو الافتراس أيهما أقرب إليك لا تفرق، أما عن الأميرة حفيظة فظلّت تتأمل خصــلات شــعرها البني الظاهرة من مقدمة رأســها بعدما انزلق غطاءُ رأســها للخلف عن عمدٍ منها في دلال مُفرِط، فلم تكترث بما حدثَ حولَها، كل ما فعلتهُ هو أنها مالت بوجهها ناحية الباب وسرقت نظرةً دون اكتراث لهرولة والدها المُسن وفزعته، ثم أعلنت المقتَ بشــفتيها وعادت تُصــفّفُ خصلاتِ شعرِها مرةً أخرى، مرَّت لحظاتٌ قليلةٌ عليهم حتى ســمعنَ طرقًا على باب الدوار، فتحركت فرحة ناحيته وفتحته لتجدَ شــخصًــا نحيلًا أربعيني المظهر رغم أنه في أوائل العشــرينات من عمره لكنَّ مظهرهُ وشــحوبَ بشــرتِهِ وجحوظَ عينيه النابتة من وحلين أســودين لهالتين لعينين أعلنتا شــيخوخته المبكرة، وانتشر على جسده الكثير من البقع البيضاء التي تلون

جِلدهُ القرمزيّ فأفصحت عن سوء تغذيةٍ واضطراب المناعة الذاتية لديه، وغطي هذا الجسدَ الواهن جلبابٌ رماديّ اللون لا تعرف إن كان في الأصل أبيض اللون فتحول إلى تلك المرحلة بعد تفاعله مع قذارته اليومية، أم هو رماديٌّ من الأساس، ورغم كل تلك المواصفات البشعة لم تغيّر فرحة من ردةِ فعلِها، إذ نظرت له بترحابها المعتاد وهي تقول له:

- إزيك يا سي تقاوي.

فردَّ عليها في تلعثمٍ مجبرًا عليه من كثرة ما يتناوله من المخدرات:

- إزيك يا فرحة.. هلال صحى ولا مش ناوي؟

ما أن حاولت أن تجيبَه حتى وجدتْ صبريّة تقاطعُها متسائلةً عمن طرق الباب وهي تتقدمُ ناحيتَها فتجيبُها فرحة:

- دا سي تقاوي صاحب سي هلال بيسأل عنه.

ظهرت صبرية بقامتها المعهودة شامخةً أمام الباب فانسحبت فرحة مجبورة تتوارى خلفها من بُعد عدة

خطوات تراقب ما يحدث، فبدأت صـــبريّة بتوجيه كلامها لتقاوي متسائلة:

- خير يا تقاوي في حاجة ضـــروري عايزها منه؟ أصــــل هلال نايم وأنا مابحبش أتقل عليه وبســـيبه يصحى براحته.

- لا والله يا حاجّة هو اللي قالي أعدي عليه لاجل ما أقضيله مصلحته.

- إذا كان كده توّك أصحيه.. دا هلال اللي بدعيله ربنا يهنيه.. دقيقتين كده يصـــحى ويفوّق ويجيلك.. قول للبت فرحة تشرب إيه تبل بيه ريقك.

قالت تلك الكلمات وهي تشـــير له بالدخول وتتحرك للداخل ناظرةً لفرحة التي أجابتها مسرعة ناحيته سائلة عما يشرب فأجابها:

- فنجان قهوة سكر خفيف بُن كتير أكون شاكر.

مالت فرحةُ برأســـها وأســـرعت إلى الداخل، ودخل تقاوي في هدوء كأنه تمساحٌ يخرج من مستنقعه متجهًا

ناحية طاولة الطعامِ التي لا زالت حفيظة جالسةً عليها شاردةً في تقاسيم وجهها بينما هو يتأمل كلَّ خليةٍ فيها في نهمٍ مُفرطٍ حتى لاحظت وجوده متفاجئةً فشهقت رغمًا عنها، فأسرع بقولِه:

- سامحيني.. ماهو غصب عني السبب جمالك.. دا المؤمن لو دخل مِحرابك.. يُعلن إنه مُلحد كافر.. آسف لو فزعت جنابك.

كانت كلماتُهُ قد داعبت خلايا أنثوتها المغرورة مما جعلَها تكافئُهُ بابتسامةٍ تتنافس لمعتها مع لمعةِ عينيها، ثم أردفت قائلةً في تعاليها المعهود:

- الكلمتين دول اللي شفعولك إني مقولش لهلال إنك بتعاكسني.. اعرف مقامَك بدل ما أعرفهولك وأخليك تخاف تنطق اسمي.

أنهت ما قالتهُ بنظرةٍ من أعلى إلى أسفل ثم رمقتهُ محتقرةً وهي تنهضُ من مكانها ذاهبةً للداخل بخطواتٍ ثابتةٍ وتركته يتفحصُها وهو يعصرُ غضبَهُ بين أسنانه ولكنه حاول إن يذوّبه بابتسامةٍ صفراء يتصنَّعُها عندما

رأى هلال يكمل ارتداء ملابسه وهو يدنو منه مسرعًا قائلًا:

- تقاوي أهلًا أهلًا.. والنبي ياما استعجلي البت فرحة تنجزنا في حاجة نشربها.

قال هلال تلك الجملة وهو يتأكد أن والدته صبرية ليست قادمة خلفَهُ ثم تلفّتَ يمينًا ويسارًا حتى يتأكد من عدم وجود أحدٍ بالقرب منه فانقلبتْ ملامحُ الترحيب التي كانت على وجهه إلى غضبٍ وقال في حدةٍ وغضب وهمس:

- إنت فين يا هباب الطين؟ دورت عليك من بيتكم لدار الطحين لسوق الحمالين.

- في إيه يا هلال؟ هو لازمًا حاجتك تيجيك في الحال.. إنت مش عارف إيه اللي بيحصل فينا.. الحكومة مفتحة عينها علينا.. دا غير إن التاجر مطلع عينينا.

- طب هات مش قادر أستحمل خلصني.. مش كفاية في الفلوس زي القصب ممصمصني.

مـدَّ هلالُ يـدهُ في جيبِـه وأخرج مـا معـه من أموالٍ فأعطاها لتقاوي في غضـــب، وما أن أخذها منه تقاوي حتى خرجَ من جيبِهِ هو الآخر كيسًا بلاستيكيًا صـغيرًا يحتوي على مـادةٍ جـافـةٍ بيضــــاء، لكن تقاوي تعمّد أن يوهمَهُ أنه تعثَّرَ في إخراجها لتسـقطَ على الأرض أمام قـدمــه، فنظرَ لــه هلال في عينيــهِ ينتظر أن يتحرك ليحضــــرها من الأرض لكنـه ظـل ينظر لـه في ثبـات غريب لم يعهده عليـه من قبـل ممـا جعلَ هلال يخفضُ رأسَــهُ ويهربُ من عينيه وهو ينزل أمامه ليحضـــر ما أســـقطـهُ ولكنـه تفـاجـأ بـأن هنـاك القليل من تلـك المادةِ السـامّةِ قد خرج من الكيسِ وتبعثّر من أثر السـقوط فهَمَّ هلال إلى التقـاطهـا دونَ أن يفرطَ في ذرةٍ واحـدةٍ منها، كل هذا وتقاوي يقفُ شــامخًا في جبروت كأنه إلهٌ يرى تذلُّلَ عبدَهُ أمامهُ ولكنهُ إلهٌ يتشـــفى في عبده وينتقمُ منه في خبثٍ ودناءةٍ وهو يراقبه من أعلى، تكادُ جبهةُ هلال تقبّلُ حذائه المتسخ، وفي أثناءِ هذا المشهد الوثني كانت فرحة تقف من بُعدِ خطواتٍ منهما خلف إحدى السـتائر تحملُ فنجان القهوة منتصبةً مكانها تراقبُ هي الأخرى هذا المشهدَ في صمتٍ ومتعةٍ وتلذّذ.

****

انتشـر خبرُ الحريق الذي اندلعَ في أرض عويضــة أبو الحمد انتشـارًا واسـعًا في البلد مما جعلَ العمدة ينحرفُ عن مسارِهِ بعربتِهِ الخشبية التي يقودُها بنفسِهِ ويجرُّها اثنان من الخيلِ الأصــيل مفتولة العضـــلات ويتوجهُ نـاحية الأرض التي فضـــحَ دخانها الكثيف ما آلت إليه من كارثة، ظلَّ يقتربُ حتى وصــل إلى أرضٍ مرتفعةٍ قليلًا عن أرض عويضــــة، وأدرك أنهُ وصـــل لحدودِ قدرتـهِ على التنفسِ دون اختنـاق، وذلك على بعد ليس بقريب من الأرض فشـدَّ بكلِّ قوتِهِ اللجامَ لتتوقفَ الخيلُ فيتأملُ العمدةُ هذا المنظرَ المرعبَ بكلِّ متعة يسـتحقها، إن الأرض التي تنـافسُ أرضـــه في المســـاحة وإنتاج المحصول أصبحتْ وقودًا لبحرٍ من النيران تزحفُ في جميع الاتجاهات، مالكُها عويضـــة الذي يتجمع الناسُ حولَه حبًا فيه، وها هم حولَهُ يسـاعدونهُ بكل قوتهم كأنه ربُّهم الأعلى وليس كما يتجمَّعون حولهُ برغم أنه العمدة إلا نفاقًا ورياءً، فلولا انقطاع الأسلوب الديمقراطي عن ضــفافِ أرضــه لكان عويضــة منافســهُ الأوحد على

كرسي العمودية الذي ورثه أبًا عن جد، تلمعُ عيناه من الفرح والحقدِ الدفين، وتنيرُ بداخل رأسه جملة "لقد انكسرت يا عويضة"، وما كانت الدنيا بخيلة عليه، ففي تلك اللحظة ووسط جموع الأفراد الذي يحاولون إخماد هذا الحريق الهائل ظهرَ عويضة صارخًا، لقد أمسكتْ النيرانُ في يدهِ اليسرى، قفز إليه ولدهُ عبد العال بغطاءٍ من الصوف ليخمدَ تلك النيران فتلطخَ وجه عويضة بالطين صارخًا باكيًا متألمًا، مما زاد سعادةَ العمدة نشوةً وفرحًا وهو يخاطب نفسه قائلًا:

- يااه يا عويضة والله كان نِفسي.. أكون أنا اللي ولعت أرضك بنَفسي.. بس حنقول إيه ما هو من أعمالك وغباءك.. صممت تزرع ذرة في أرضك القبلية.. رغم تحذير الهيئة الزراعية.. ودخلت حامي والشمس طلعت أحمى من غرورك وعنادك.. النار هبّت في قشك.. وقشك بقى نار بتسبح في أرضك.. والطين فيها روحه ماتت.. ماتت أرضك يا عويضة.. دا حتى قدرك طلع كارهك أكتر مني.. ولسه يا عويضة حاكسرك بيدّي.

ثمَّ ضــــربَ العمدةُ بســـوطه الخيلَ ليتحركَ بعربتِهِ إلى مســـــارهِ مرةً أخرى حيثُ توجّـهَ إلى العيـادةِ الطبيّـةِ الموجودة في الجهة الشــرقيّةِ من البلد، وحينما وصــلَ تفـاجـأ بعـددِ الأهـالي الـذين تـأذّوا بســــبب الحريق من حالاتِ حرقٍ وحالاتِ اختناقٍ فنزلَ من عربتِهِ مسـرعًا مُتفاديًا تجمُّعَ الأهالي من حوله لتقبيلِ يدهِ أو لاســتجداء طلبٍ شـــخصــيّ حتى وصـــل إلى غرفة الطبيب ليقف "إســـماعيل" مســـاعد الطبيب من مكتبه بجوار الباب مُرحِّبًا بالعمدة، لكن الأخير لم ينتظرْ أن يســـتمع لأي شـــيء من هذا الترحاب فأمســـك بمقبضِ الباب وفتحهُ ليجد الطبيبَ جلال منهمكًا مع مريض التهمت النـار نصــف وجهه العلوي، صــرخ المريض متألمًا فضــمّدَ الدكتور جلال جراحَهُ، ثم تفاجأ بدخولِ العمدة فترك ما كان يمســكُهُ بجانب المريض، اقترب منه وهو يقول له في حدةٍ وهمس:

- إيه اللي جابك هنا دلوقتي؟ هو اليوم الأســود ده مش حايعدي؟

- طلّع البهيم المحروق ده برة عندي كلمتين حاقولهم وأمشي.

نظر له جلال في غضبٍ وهو يرفعُ نظارتهُ لأعلى قليلًا ثم التفتَ للمريض الذي يجلس متألمًا وقال له:

- معلش يا عم حسنين قول لإسماعيل التمرجي يكمّلَك لف الجرح وتجيلي أغيّرلَك عليها بكرة بدري.

خرج عم حسنين بخطواتٍ بطيئةٍ فانتظره جلال والعمدة حتى تأكدا من خروجِهِ وغلقِه للباب من الخارج فذهب جلال خلفهُ وأكّد غلقه بالمفتاح من الداخل ثم التفت للعمدة وأمسك نظارته كعادته ليرفَعَها من أطراف أنفِهِ مرةً أخرى وسار ناحيته بخطواتٍ ثابتةٍ قائلًا:

- إزيك يا عمدة؟ إيه اللي جابك هنا؟ جاي تشمت في اللي حصلنا.. ولا تكونش لسه فاكر إنك خالنا.. وأمرنا يهمك أو أمرك يهمنا؟

- طب مش حاتقولي اتفضل يا دكتور.. يا متربي ومتعلم وعارف الأصول؟

- اتفضـــل يا جناب العمدة.. اتفضــلت؟ وياريت تنجز وتقول.

لم يسـتطِعْ جلال إخفاء غضـبِهِ ومشـاعرِهِ السـيئة أمام خالِه العمدة فظهرتْ كلماتُهُ صـلبةً، لكنها لم تؤثرْ على برودِ العمدة الذي طال مزاحه قائلًا:

- طب مش حتقولي تشرب إيه؟

- إخلص يـا عمـدة أنـا مش حـاجزلـك اليوم بطولـه.. فياريت.. تقول اللي رايد تقوله.. بسرعة ياريت.

ابتسـم العمدة وهو يسـيرُ حتى وصـلَ إلى مقعد الطبيب فقال:

- خلاص يـا دكتور براحـة علينـا.. ولا إنـت خلاص كبرت ومـابقيتش زيينـا.. ده أني جـايبلـك الخير.. وإنت عارف ومجرب أنا خيري كتير.

أشــارَ له أن يقتربَ منه قليلًا وتعمّدَ أن يخفضَ صــوتَهُ ويُكمِل:

- جايبلك واحد جاي يبيعْ كِلِيتُه.. ومش فارقة معاه.. خُد اللي انت عايزه من جتته.. أنا ماسك عليه وُصُلات أمانة توديه اللُمان.. يعني مش حايبقى ليه حتى إنه ينطق كمان.. والمرة دي الجماعة برة حيدفعولك كتير.. واطمن.. كالعادة سرك في بير.

ارتسمت على وجه جلال ابتسامة ثم اتّسعت حتى ضحك بصوتٍ عالٍ واقتربَ من العمدة الجالس على مقعد مكتبِهِ ومال برأسِهِ وهو يربت على كتفِ العمدة قائلًا:

- كتير؟! كتير إيه يا عمدة؟! قال يعني إيدك مِبحبحة وفِرطة.. دانا باخد منك ملاليم.. وإنت استغفر الله العظيم.. ناهبها كلها ملايين ملايين.. مع إن المصيبة أنا اللي شايلها لوحدي.. وإنت أخرك تجيبلي الجِثَّة.. وأنا أنحت فيها حتة حتة.. وتاخدها مقشرة إنت.. وتديني المعلوم.. اللي مابقاش معلوم.. ولا يعجبني حتى.

نظر له العمدة لأعلى هو يفرُكُ ذقنهُ بيده ثم تنهّدَ وهو يقول:

- وإيـه اللي يعجبـك يـا دكتور يـا ولـد أختي.. يمكن يعجبني كلامك ويكون في مقدرتي.

وقفَ جلال متجهًا ناحيةَ كرســي المرضــى أمامَ مكتبِهِ فجلسَ عليهِ ثمَّ أردفَ قائلًا:

- في مقدورتك يا خالي.. من غير دوران ولا حديث كتير ولا لف.. أنـا نصـــيبي من النهـاردة حيبقى الضعف.

وقف العمدة ليُعلنَ غضبَهُ مما سمعَ أعاد ما قاله جلال متسائلًا:

- الضعف؟

ثم نظر إلى ابتسامة جلال الصفراء وهو يميل برأسه مؤكدًا ما ســمعه، وهذا جعله يهدئُ قليلًا من غضــبه ويجلس مرةً أخرى ويقول:

- ماشــي يا دكتور.. مع إنه كتير بس موافق.. وخليك فاكر ورايا حتبقى للفقر مفارق.. أبعتلك الراجل دا أمتى؟.. شوف اللي ينفع معاك إنت.

وقفَ جلال وهو يهندمُ معطفهُ الأبيض مُجيبًا تساؤله:

- بليل بعد العِشـــا كده بســـاعتين.. حابقى لوحدي في المركز أنا وإســـماعيل مســـتنظرين.. وماتنســـاش نصـــيبي الأول قبل ما أعمل أي حاجة عشـــان نبقى متفقين.

وقفَ العمدة وتقدَّمَ ناحيته وهو يهزُّ رأســـهُ مســـتغربًا ثم أردف قائلًا:

- مقدّم كمان؟! حاضـــر يا دكتور جلال.. مافيش أمان حتى للخال.. إيه الزمن دا يا ولاد؟ حاضـــر ماتقلقش حاتلاقينا عندك في الميعاد.

****

مرّتْ ثلاثةُ أيام على الحادث وعويضـــة يجلسُ بالدوار مُمسِكًا سبحتهُ الخاصة يردّد: "الحمد لله.. الحمد لله"، لا يقطعُ ترديدَهُ ذلك إلا شـــعورُه بالألم الشـــديد في يده اليسرى بين الحين والآخر، ورغم رفضِ جلال معالجةِ والده، لكنه أرسلَ إسـماعيل مسـاعدَهُ ليضـمّدَ له مكان

الحرق ويلفَّ حولَهُ الشاش الطبي لكنّهُ يشعرُ كأنَ النارَ ما زالت تأكلُ في لحمهِ الذائبِ تحت هذا الشاش، تحركت شفتاهُ بالتسبيحِ ولمعتْ عيناه من الحزن وتباطأت دقاتُ قلبه وهو يتذكرُ أنّ أرضَهُ التي ورثها عن أجدادهِ أصبحتْ رُفاتًا من الفحمِ جسدًا بلا روح، وما صدمهُ أكثرَ هو نظراتُ من حوله كأنهُ من حرقها بيدهِ وليست قضاءَ اللهِ وقدره، مرَّ الجميعُ من حوله دون أن يحنوَ عليه أو يواسيه أو حتى يطمئنَّ على جرحه، فلقد كان سيصبحُ قطعةَ فحم تكمل به النار وجبتها لولا ستر الله، شعر عويضة كأن الجميعَ يتجنبوه ويتحاشوا الكلامَ معهُ وكأنهم صاموا عنه، لكنه لاحظ أن هلال ينظرُ له في عينيه، إنه يتقدمُ ناحيته، نعم لقد اقتربَ كثيرًا منه، وهذا أراح قلب عويضة قليلًا شعاع نور يكسرُ عتمةَ كآبة الدوار، ولكنه تفاجأ بوقوف هلال أمامهُ وهو يفركُ يديه في جانبي بنطاله ويهتزُّ قليلًا كبندول الساعة يمينًا ويسارًا، ثم بسط كفَّ يديه أمامه بعد أن مسحَ أنفهُ بها قائلًا:

- هات فلوس يابا

أدركَ عويضة أن سببَ اقتراب هلال منه ليس كما ظنَّ ولكن ليطلبَ منه المال، فتنهد يائسًا متسائلًا:

- إنت ياد يا هلال مالك؟.. حالك مابقاش حالك.. في إيه؟.. إيه جرالك؟

ينقلبُ وجه هلال متذمرًا وهو يقول:

- في إيه يابا؟.. حتعملنا فيها محقق نيابة.. حتجيب الفلوس اللي قولتلك عليها.. ولا حاتشغلّي إسطوانة الغلابة.

لم يتحمل عويضة ما قال هلال فسيطرَ الغضبُ عليه فقال صارخًا:

- إيه اللي إنت بتقوله ده؟ اتحشّم

يرجعُ هلال إلى الخلفِ خطوتين ليستخدمَ الطريقةَ المثلى في الهجوم وهي أنْ تنثرَ غضبَكَ بكلماتٍ ثقيلةٍ لا يستوعبُها العقلُ الذي أمامَك بسرعةٍ كافية حتى تكون انصرفت وتركتَهُ يتخبّطُ فيما قلت كما فعل هلال بقوله:

- أدي اللي بناخده منكم.. اتحشـــم.. اتبســـم.. اتأدب.. اتعلم.. لكن كلام في الفلوس ألاقيك بتهمهم وبتلملم.

قالها هلال وانصـرف غاضـبًا ليترك عويضـة صـامتًا متخبطًا يحاولُ أن يستوعبَ ما قالَه هلال وكيف يتجرأُ على والده بهذا الشـــكل، ومن باب الدوار الذي تركه هلال مفتوحًـا ليعبُرَ منـه إلى الداخل عبد العال ومعه هـارون بيـه نـائب القرية في مجلس النواب، وبرغم أنه يكبر عويضــة بعقدٍ من الزمنِ إلا أنَّ الصـبغةَ السوداء تقومُ بعمليـةِ نصـــبٍ في تقليـل عمره الحقيقي، وتجد السعال هو صديقه وملازمه منذ فترة ليست بقريبة فهو يســعل بســرعة ٦٠ ســعلة في الدقيقة، ورغم ذلك لا تفارق يده السـيجار الكوبي الضـخمة بُنية اللون ويتقدم ناحية عويضـــة وبجانبه عبد العال وعلامات الســعادة تقفزُ من وجهِهِ وهو يفرّطُ في الترحابِ به:

- هارون بيه، اتفضل بيتك ومطرحك.

تقدَّمَ هارون بيه ليصافحَ عويضة وقالَ له وهو ممسكٌ يدهِ:

- ألف سـلامة عليك.. والحمد لله إنها جات على قد كده.. وربنا يعوّض عليك فداك.

- الحمد لله أهو كله رضـا.. خير يا هارون بيه.. تشريفك لينا غرضه إيه؟

جلسَ هارون بيه وبجانبه عبد العال الذي ظهرَ عليه أنه يعرفُ سبب زيارة هارون بيه لبيتهم من نظراته له بسعادة، ولقد لاحظ عويضة هذا وهو يعود لجلستِهِ مرة أخرى، أكمل هارون وصلة موسيقيّة فرديّة من السعال ثم أردفَ قائلًا:

- أنا جايبلك مصلحة.. ترجعلك للعيشة المستريحة.. جايلك بعرض يغنيك عن الفلاحة والأرض.. أرضك القبلية بعد الحريق صبحت منتهية الصلاحية.. مش فاضل غير مزرعة المواشي والطيور اللي على قدهم والدوار.. وحيطة دوارك القبلية لازقة في سور قصري.. أنت عشان ليك خاطر كبير عندي.. أنا راح أشتري منك الأرض والدوار.. بالمبلغ اللي عاوزه وعليه أزيد.. ونردلك تاني السمعة والصيت.. وكأنك يا أبو زيد ما غزيت.

ظهر على عويضة علامات الغضب واحمرتْ عيناه وانتصب من جلسته قائلًا بحدّة:

- إيه الكلام اللي بتقوله ده يا هارون بيه.. أني لسه عويضة أبو الحمد مسعود.. وإن كان على الصيت

لساه موجود.. أنا لسه مانكسرتش الحمد لله وظهري مفرود.. خد واجبك واتفضل من غير مطرود.

انصـــرف عويضـــة إلى الداخل ووقف عبد العال بعدهُ بغضــــبٍ وعيناه تزدادُ احمرارًا وغيظًا وتتابعُ والده كُرهًا، لاحظ هارون بيه هذا الغضب فبادر بإمساك يد عبد العال كأنه يتعكَّز عليه ليخرجَ من الدوار وبالفعل يسيرُ بجانبهِ عبد العال وأنفاسه الغاضبة السريعة العالية الخارجة من أنفهِ تسيطرُ على جميعِ الأصوات حولهما، حتى وصلا إلى بابِ سيارة هارون بيه فوقف الاثنان وفتح عبد العال باب السيارة ومدَّ هارون بيه كفَّ يده على كتف عبد العال قائلًا:

- عمرك اللي راح في الفلاحة ورا أبوك في الأرض وكأنه كان عليك فرض.. تمن عمرك ده عندي وبالدولار كمان متقلقش.. ألا قولي يا عبد العال.. لساك برده ناوي تسافر.. ولا تقعد جار ابوك تناكف وتعافر ... وياريته حتى بقى قادر.

- لا.. راح أســـافر مش حاســـتنى.. مش حاعمل زي أبويـا أقعـد أعـافر في حلم وأتمنـى.. هو يعنـي كـان مقعدنـا في الجنـة.. كـل واحـد في الـدوار بيقول يلا نفسـي الكل في ملكوتـه.. شيطان مخنوق زهقان يبيع أخوه وقُوُته.. واللي تيجيله الفرصـــة مايبيعش ليه يا هارون بيه.

نظر له هارون بيه بإعجاب وابتسم له قائلًا:

- وأهي الفرصة جاتلك.. ورينا بقى شطارتك.. يوم ما حُجة الأرض بالدوار تبقى في يدك.. حتلاقي عندي ســـفرك.. وكمـان حـاديك بالدولار حقك.. وفوقيهم وعـد من عنـدي.. أكلملـك حـد في أوروبـا تبعـي.. ببيزنس تبتدي بيه هناك.. أيه رأيك عرض مغري.

- اتفقنا يا هارون بيه

****

لم تكن الأيام التي تَلَت مقابلة هارون بيه بعويضـــة أقل مصـاعبَ من ذي قبل، فبعدَ ثلاثةِ أيامٍ استيقظ عويضـة من سُـــباتـهِ على صــــراخ العاملين بمزرعة الدواجن والمواشي تحت شُرفة دوارهِ وعندما خرج لهم مفزوعًا زاد فزعـه أكثر عنـدمـا لاحظَ أنّ الرعـبَ يتقلـبُ على وجههم من شـــدة الخوف، وذلك بســـبب ما رأوه وقد أصـيبوا جميعًا بالصـمم، فلقد تفاجؤوا بتصـلّب عضـلة اللســان لديهم بعد أن خرجوا من المزرعة مباشــرةً فلم يســـتطيعوا حتى على البوحَ له بما حدث، وهذا ما زاد رعبَهم وأنينَ صــراخِهِم، فأســرعَ عويضـــة وخلفه عبد العـال نـاحيـةَ المزرعـة وحـدهمـا لأن العـاملين التزموا أمـاكنَهم خـائفين، ليتفـاجـأ عند وصــــولهما برائحةٍ عفنةٍ مُسيطرةٍ على المكان من الداخل فأخرج عويضة منديلًا قطنيًا من جيبهِ ووضـعهُ على أنفِهِ ليسـتطيعَ أن يتنفسَ، فتمـالكتْـهُ الشــــجـاعـةُ قليلًا وفتح بـابَ المزرعة مرتجفًا ليكتشـفَ أن جميعَ الطيورِ والمواشــي مفترشـة الأرض بعضُـها فوق بعضٍ وأطرافها مُتصلبةً في وضعٍ مشتّتٍ وعيونـهـا مفتوحــةً جـاحظـة، وأمعـاءهـا خــارجـةً من أحشـائها كأنها ماتت منفجرة، ثبتَ عبد العال مكانه من

الصــدمة، وحاول عويضـــة أن يتقدّمَ أكثر ليتفحَّصـــهم لكنهُ صُعقَ من الصدمةِ هو الآخر، لم يمرّ عليه حادثٌ مثل هذا من قبل، أيُّ وباءٍ هذا الذي يفجّرُ الأمعاءَ للطيور والمواشي بهذا الشكل؟ أي وباءٍ هذا الذي يجعلُ العيونَ جاحظةً هكذا حتى بعد موت الجسد؟ أي وباءٍ أو صـــدمةٍ تؤثرُ على عضـــلة اللســـان بشـــكلٍ مُعدٍ كهذا؟ وكانت الإجابةُ هي أنه التفت منكسـر القامةِ يكادُ يخطو على الأرض، أخرجَ ســـبحتـهُ وظلَّ يردّدُ "الحمد لله.. الحمد لله" عائدًا للدوار وعبد العال ينظرُ له غاضـــبًا ويقولُ في نفسه:

- إنت ملعون يابا.. وأنا مش حاخلي لعنتك تطولني.

ولم تُسفرْ التحقيقاتُ عن شُبهةٍ جنائيةٍ في هذا الحادث مثله مثل حريق الأرض، وبعد مرور يومين كانا كافِيَيْنِ تمامًا لانتشـــار إشـــاعة "لعنة عويضـــة" أو "عويضـة الملعون" كما سمّاها البعضُ والتي تصيبُ كلَّ من يقتربُ منه بالأذى، فنفرَ منه الناسُ وقلَّ زوّارُ دوارهِ وظلَّ هو حبيسَ غرفتِهِ وســبحتِهِ يتلاشـــاه أهلُ بيته، ولكن على غير العادة بعد الغروب بســـاعتين،

سـمعت صـبرية طرقَ الباب وكانت قريبة منه فذهبت لتفتحَ البـابَ لتجدَ أخوها العمدة القادم بملبســه المنمّق بـالجلبـاب والعبـايـة والعمـة والعصــا فقابلته صــبرية بالترحاب قائلةً:

- يا صـلاة النبي.. يا صـلاة النبي.. و أنا أقول برضـه إيه النور دا كله.. دا أحنا زارنا النبي.. واحشـني يا مُســعد يا اخويا.. العمودية وخداك مننا.. دي الدنيا في غيابك حزينة.

- إيه الكلام الحلو دا.. ما أنتِ خابرة.. أنتِ مش بنت عمدة برضــه و لا أيه؟ وخابرة العمودية مشــاكلها كتيرة أد أيه.. المهم دلوقيت أنا جايب لعروستنا خبر حلو زيها.

تقترب منهما حفيظة بخطواتٍ سـريعةٍ واحمرارُ خديْها ينير وجههَا قائلة:

- قول يا خال.. رّيح لِنا البال.

نظرَ لها العمدة مبتسـمًا ثم التفت لأخته صـبرية مشـيرًا لها متعجبًا:

- جايبلك عريس نقاوة.. نقاوتي أنا.. حاجة تشــرف كده.. راجل مليونير.. جاي من الخليج طازة.. جاي من على وش القفص يا بت.. يعني حِجج زمان مالهاش عازة.. أُمور العنتظة و النقاوة خلاص يا بت.. إحنا ياما سكتنالك و لو عايزانا نعدلك حنعد.

قفزتْ أمامه حفيظة رافضةً ما قاله وقالت:

- عنتظة أيه يا خال!! الحال مابقاش الحال.. زمان أنا كنت عايزة واحد مِتعلم مِتنور.. دلوقيت.. أنا عايزة أي حد عليه أتصـــبر.. بس يكون بالعز مليان و الجيب دفيان.. بس خايفة أبويا يعصلِجها و يعقدها.

وضع العمدة يده على وجه حفيظة مداعبًا خديْها قائلًا:

- أيوة كده يا حفيظة.. يعني عاجبك دي العيشة.. أيوة كدة طمنيني عليكي.. و أبوك ماتحمليش همه بقى ريشـــة.. هو يقدر يرفض طلبي و لا أيه؟ دا أنا العمدة.. وبعد كلمتي مافيش كلمة حد يقولها.. قومي حضريلي يا عروسة لقمة أكلها.

ازدادَ احمرارُ وجهِ حفيظة من السـعادة ولمعت عيناها وهي تقول له:

- حاضـر يا خال.. عينيا.. لو عايز نجمة من السـما أطولها.. عشان خاطرك يا جناب العمدة أجيبها.

أسرعتْ حفيظة إلى الداخل كأنّها طائرةٌ تكادُ أصـابعُها تلمسُ الأرض وشعرُها يقفزُ هو الآخر فرحًا معها، كل هذا وكان يلاحظهما العمدة وصـبرية الذان تملّكَهُما الضحك من ردة فعلها فقالت صبرية باسمة:

- شـوف البت حفيظة.. اللي كانت متأمّرة و نفسَـها عزيزة.. قبلت العريس بالسرعة دي أمّا عجيبة.

- بنتك أنصح منك يا صبرية.

تملّكَت وجهُ صـبرية ملامح عدم الاسـتيعاب لما قاله فسألته مُستفهمةً:

- مش فاهمة يا مُسعد يا أخويا يعني إيه؟

جلس العمدة على المقعد الذي بجانبه وأمسك يديها لكي تجلسَ بجواره ثم أردَفَ قائلًا:

- عرفت الأمان إزاي تلاقيه.. و أنتِ عايشـــة و مش عايشــة.. قابلة و مش رافضــة.. يوم في غموس في الفطار.. و يوم شـوية مية على النار.. دا يليق برده بنسب العمودية.. يا صبرية.

لمعت عينا صبرية محاولةً تمالك انهيارِها قائلةً:

- يعني عايزني أعملك إيه يا مســعد يا أخويا.. اللعنة أكلت اللي حيلتنا.. ومابقاش فاضل غير البيت دا.

- و ليه كل دا.. تقبليه و تســتحمليه ليه؟ اطلقي منه.. وابعدي عنه هو وفقره.. يعني حد على أيده ضربه.. هو اللي نحس و فقري وملعون.

اتســعت عينا صــبرية وتســارعت ضــخّات الدم للمخ لتقول متفاجئةً متسائلة:

- أطلّق ؟!

- أيوه.. اطلقي.. و تعالي عيشــي في بيت يليق بيكِ.. حاجة كده متفصلة عليكِ.. ابن عمك لسه رايدِك.. و حيلبي كل طلباتك.. و تعيشــي ملكة طول حياتك..

فكري يا صـبرية.. الكلام دا لكِ مش ليا.. فكري و قرري.. من سجن فقره ولعنته إزاي تتحرري.

تركَ العمدة صبرية شاردةً في عرضه وهو يخرجُ من الدوار، وقبل أن يركب عربته التفت لينظر للدوار مبتسمًا بانتصاره.

****

لم يصــبرْ عويضــة على ما أصــابه، ورغم قبولِه لما حدث والثبات على حمد ربه، إلا إن هناك جزء بداخلِهِ يصـرخُ فيه وهو أن يبحثَ عن سـبب على الأقل لذلك، التحقيقـات أثبتـت أن الحريقَ ليس بفعـل فـاعـلٍ وإنمـا ارتفاع درجة الحرارة مع طبيعة الأرض أدى إلى ذلك مثلمـا يحـدث في حرائق الغـابـات، أمـا عن المزرعـة فـأثبتـت التحقيقـات والعينـات التي أخذت من المـاشــية والطيور بعد فحصـــها جيدًا إنه تم مهاجمتهم من قطيع كبير من الفئران اســتطـاع أن يســيطرَ عليهِم بعد أن بـاغتهم ليلًا وهم نـائمون، فتنـاوبوا على قتلِهِم وإخراجِ أحشـــاءِهم ثم تركوهم واختفوا، ولم يجد العاملون على البحـث والتحقيقـات أي أثرٍ لهـذا القطيعِ في أي منطقـةٍ مجاورةٍ حتى الآن، أو كيف وصل إلى أرض المزرعة أو كيف انصرف واختفـى.

أثَّر ذلك كثيرًا على عويضة نفسيًا وكان الأصعب عليه هو نظراتُ أهل بيته وتحاشيهم لمعاملتِهِ فأهملوه كثيرًا، فلقد تركته صــبرية يبيتُ في غرفتهِ وحيدًا وانتقلت هي إلى غرفةٍ ثانيةٍ تُقيم فيها، بعد أن أصبحتْ حالتهُ الماديةُ في أســوء مراحلها فإن حجم خســارته كان كبيرًا في

فترةٍ قليلةٍ مما جعله ذلك اليوم بعد أن أنهى صلاة الضحى أنه ارتدي ملابسه ونزل محاولًا أن تعودَ تجربةٌ تجمعُ عائلته على طاولة الإفطار مرة أخرى، لكنه جلس على الطاولة وحيدًا فاقتربت منه أم عواطف لتضعَ أمامَه الإفطار الذي لا يتعدى قطعة جبنٍ ورغيفًا من الخبز، وهي تعتذرُ له بأنَّ تلكَ هي تعليماتُ المارشال صبرية وأنها تطيعها لا أكثر طالبةً منه أن يسامحها، لم يستطعْ عويضة أن يتحملَ ذلك أمام أحد خُدام الدوار فأشار لها بيديْه وهو يقول:

- لا، أنا الحمد لله صايم.

ثُمَّ نهضَ وانصرف من الدوارِ مُحدّدًا هدفَه وأين يكونُ ملجأه اليوم، ولكن ما فوجئ به هو نفورُ الناس وابتعاد الجميع عنه، حتى أنَّهُ إذا صادفَ أن يكونَ في مقابلةِ أحدِهِم يغيِّرُ طريقَهُ أو يلتفتَ بعيدًا عنه، لا أحد يردُّ على تحيتِهِ وسلامِهِ حتى عند مرورِهِ بين البيوتِ الصغيرة يتسبّبُ في هرولة النساء عند ملاحظتِهِ يقتربُ منهنّ وأخذن يقبضن علي أولادهن ليدخلونهم البيوت عنوة، ثم يغلقن الأبواب خلفهن، وحتى النوافذُ

المفتوحـةُ أغلقت، كان يســـمعُ منهنَّ همهماتٍ ولعناتٍ ودعـاءً عليـه خوفًا منه، وإذا نظر إلى عينِ أحدهم رأى فيهـا الخوفَ والخجلَ منـه، بعضُ النـاس صــــدَّقَ إنـه ملعونٌ وبعضـــــهم الآخر أُرغِمَ على أن يصـــدّقَ إنـه ملعون، وكيف لا يصــــدّقونَ وكلُّ ما كان يملكهُ طالتهُ اللعنـة! فلاحينُـهُ أصــــيبوا بـالحروق وعمـالُ مزرعتِـهِ أصـيبوا بالصـمم لسـاعاتٍ، وأرضُـهُ أحرقَتْ من تلقاء نفسِـها، وطيورهُ وماشـيتُهُ نهشَـتْ بطونها، إنها لعنةٌ لا شـكّ، وهو الملعونُ الوحيد، أكمل عويضــة طريقهُ كما قرّرَ وعيناه تلمعُ بدموعٍ يداريها عن العامة وعن نفسِـهِ ويداهُ ممسكةٌ بسبحتِهِ تتقلبُ حباتُها بين أصابعِهِ وشفتاهُ تردّدان الحمد لله.

حتى وصــلَ أخيرًا إلى مقصِــدهِ وهو المكانُ المباركُ ضــريحُ الشــيخ "صـــابح المعداوي" حيث توقّفَ أمامَ البوابةِ المزيّنةِ بنقشٍ هندسـيٍّ إسلاميٍ يعودُ إلى التراثِ الفاطميِ ونوافذِ الأرابيسـك الخشـبية التي تعكسُ أشـعةَ الشمس عليها فتنيرُ ظُلمةَ قلب عويضة قليلًا، وزادَ من حماسِـهِ للدخولِ ليجدَ بالداخل عددًا قليلًا من أهالي البلدِ يلتفّون في منتصف الغرفةِ حول الضريح المُشيَّد بقِطَعٍ

من الرخـام التي تفوحُ منهـا رائحـةُ المِســـك، ومـا أن اســتنشــقَها عويضـــة حتى شــعرَ براحةٍ تسـيطرُ عليه فأغمضَ عينيهِ لثوانٍ ثم فتَحَها ليرى كســوةَ الضـــريح ذاتِ اللونِ الأخضـــر المصــــنوع من الكتّان، منقوشٌ عليهـا بـاللون الـذهبي أيـاتٌ من الـذكر الحكيم، ومـا أن لاحظتْه الأهالي حتى بدأتْ بالهمهمات وبعض الكلمات الاستنكارية فاتخذ أحدُهُم القرار وأخذَ ولدهُ معه غاضبًا وذهـب خـارجًـا ليتبعـهُ بـاقي الأهـالي ســــاقطين على عويضــــة بنظراتٍ مختلفـة، منهـا الاشـــمئزاز ومنهـا الغضــــب ومنهـا الخوف، انفضَّ الجميعُ من حولِـهِ وتركُوه وحيدًا بالمقام يسـمعُ صـدى أنفاسِـهِ، اقترب من الضريح وجلسَ وأسندَ ظهرهُ عليه فلمسَ برودةَ الرخام فارتخت عضــــلاتهُ كأنّه جملٌ قد بَرَك، ثم أخذَ نفسًــــا عميقًـا محـاوِلًا منعَ دموعِـهِ من النزولِ، ولكن عنـد محـاولتِـهِ الثـالثـةِ انفجرت عينـاه بـالـدموعِ ســـارحـةً على خديه فوضـعَ كلتا يديْهِ على وجهِهِ محاولًا سـترَ انهيارِهِ أمامَ أيّ شــــخصٍ قد يراه على هذه الحال، فهو ما زال متماســكًا متمالكًا أو هذا ما يظنُّه، وعندما ابتل صـــدرَهُ من كثرة دموعِهِ قال صارخًا:

- ليييييييه؟

خوى الضـريحِ من زواره من الأهالي فسـمعَ عويضـة صدى كلمته شديدًا مما زادَ الموقفَ صعوبةً وشعرَ كأنَّ الجدرانَ تتحداهُ، فارتعشَ خوفًا وقال هامسًا:

- ليه يا سـيدنا صـابح؟ كل ده بيحصـل ليه؟ أنا يدوب عبـد غلبـان.. ربنـا رزقني بـالخير، كنـت بـالحمـد سَبّاق.. رزقني بزوجة وبنت وتلت صبيان.. وأرض ولّادة بخيرهـا ومزرعـة ببركـة المولى كترت مواشـــيها وطيرها، على كل دا شـــكرت المولى الرزاق.

ازدادت شـهقاتُهُ وينقطعُ سيرَ حديثِهِ من تسـاقطِ دموعِهِ ونحيبِهِ ثمَّ أكمل حديثَهُ محاولًا اللحاق بأنفاسه:

- مـا ترد عليـا يـا ســـيدنا؟ أني مابقاش فيا حيل أعافر وأنـاكف وياك زي زمان.. كل اللي حيلتي راح قدام عينيا.. حتى قيمتي وهيبتي كله خلاص انداس وبقت النـاس بتنفر مني كـأني مجـذوب كمـان.. كـل ده والحمد يا شيخنا مش مفارق لسـاني.. اللي كاسـرنـي

بجد وبحاول مابينهوش.. عيالي بقوا ناس غريبة عليا مش هما ولادي.. مابقيتش حتى بصعب عليهم كأني كلب مرمي عدوا عليه وماشافهوش.. دا كل واحد فيهم حتة مني واللي باقي مابقاش ليا باقي.. هو أنا ملعون ولا دا ابتلاء ولا بكفر ذنوب عني.. يارب ارحمني.. هي أكيد ذنوب يا شيخنا بكفر عنها.. أنا قابل لو كانت ذنوب عنهم أو عني.. وأنا معنديش رد غير اللي علمتهولي يا شيخنا.. قل لنْ يُصيبَنَا إلا ما كتبَ اللهُ لنَا.. وحافضل شاكر ليك يا ربي وحامد.. الحمد لله على كل شيء.

نهضَ عويضة وذهبَ إلى أقرب إناء ماءٍ وسكبَ منه قليلًا على يده وبلّلَ به وجهَه ليغسلَه من أثرِ البكاء ثمَّ قرأ سورة الفاتحة للشيخ صابح المعداوي، وانطلق ليعودَ إلى الدوار بعدَ أنْ ارتاحت جوارحُهُ قليلًا ولمست الطمأنينةُ نفسَه بعضَ الشيء وما أنْ ارتدى حذاءهُ وهو على باب الضريح وتوجّه إلى الخارج حتى وجد الكثيرَ من الأهالي تقفُ أمامَ الضريح تنظرُ لهُ بنظراتٍ مختلفةٍ من دهشةٍ وخوفٍ وغضب، حاولَ ألا يعيرَهُمُ الانتباهَ

وأن يكملَ طريقَه دون أن يحتكَّ بأحدٍ منهم، ولكنهم تضامنوا مع بعض واقتربوا منه أكثر، وإذا بأحدهم يرفعُ يديْهِ مشيرًا له بالتوقف ثم تقدَّمَ منه خطوةً فرفعَ عويضة عينيهِ في اتجاه هذا القادم ليجدَهُ صابر خادمه القديم هو وجميعُ أفرادِ أسرتِه، لكنه لاحظَ في ملامحِهِ الجمودَ والغضبَ وهو يدورُ من حولهِ ناظرًا له بكثيرٍ من الاشمئزاز حتى وصلَ مرةً أخرى أمامه مباشرةً وهو على مسافةٍ قريبة منه، صرخَ فيهِ صابر قائلًا له بصوتٍ عالٍ ليسمعَ الجميع:

- مش كفاية الناس اللي راحوا بسبب لعنتك وبيوت الفلاحين والعمال اللي اتشردوا.. جاي كمان لحد مقام الشيخ صابح المعدواي بلعنتك بتنجسه.. دا أنا أخويا مرمي في المستشفى بحروق من الدرجة التالتة.. جتة سايحة في لحمها ولونها فحمة باردة.. وخالي اللي كان كبير العمال في المزرعة اتخرس أكثر من ساعتين.. ولما رجع يتكلم بقى يقول كلمة ويقف كلمتين.. أرضك بارت وماتت مواشيك وطيورك انتهشوا صاحيين.. في إيه؟؟.. إنت إيه يا أخي مش عايز تعتقنا ليه؟؟.. لعنتك مابترحمش بشر

ولا حيوان ولا طير ولا حتى أرض.. وفي الآخر جاي ترمي لعنتك على اللي بنستنجد بيه.. بنتوسطله يبعد عنّا اللي زيك.. ارحمنا يا أخي لعنتك مش علينا فرض.. وأنا عشـــان اللي كنت بتعمله معانا زمان حاخلي الأهالي تسـيبك ترجع دوارك بســلام.. بس بشـــرط ماتخطيش عتبتـه تـاني إلا على قبرك ودا خلاصة الكلام.

زادت الهمهمات حوله، منها الرافض لهذا الحل، فرفع صابر يديه ليسكتهم وأردف قائلًا:

- أنـا عـارف يـا بلد إنكم عـايزينـه يســيب البلد بلعنته ويغور.. لكن كرامة الخير اللي عمله زمان وكرامة لشيخ صابح كمان.. نسيبه في دواره لكن مايخرجش منه مهما حصـل يفضـل فيه مسـتور.. سـيبوه يا بلد يعدي وماحدش يلمسه يمكن بلعنته ينجسه.

وبالفعل تفرّقت الأهالي لتفتحَ أمام عويضة طريقًا ليعود إلى الدوار، مرَّ ناظرًا إلى الأرض خائفًا من النظر لهم مرتعشًا، تملَّكهُ البرودُ وتساقطَ من خلايا وجهِهِ العرق، ظلَّ يمشــــي ويزيدُ من خطواتِهِ قليلًا كلما ابتعدَ عنهم،

حتى وصـــلَ بـالفعلِ إلى الـدوارِ ليغلقَ البابَ من خلفه وســطَ ذهول أم عواطف وصــبرية اللتين كانتا قريبين منه، فنظرَ لهما في ضـعفٍ وصــعدَ إلى غرفتِهِ وأغلقَ البابَ خلفه، وما أن وجدَ بجانبهِ مقعدًا حتى جلس عليه، ليأخذَ أنفاســهُ كأنه اســتيقظ مفزوعًا من أحد الكوابيس التي أســقطتْهُ من على فراشـــه، جحظتْ عيناه رُعبًا وتســارعتْ أنفاسُــه من الخوف، ظلَّ هكذا ولم يبرَحْ مكانه حتى الليل.

****

في بقعةٍ على أطرافِ البلد الغربيةِ بجوارِ مضـــغ مائي قديم مُتهالك منذ زمنٍ يقابله بيتٌ صـــغيرٌ من الخوص يسكنه تقاوي، ورغم فراغِ بيته من الأساسيات اللازمة إلا أنه مزدحمٌ بالكتب والدواوين الشعرية التي يستغلّها

تقاوي استغلال الأثاث في أي منزل، فهناكَ عددٌ من الكتب فوق بعضها جعلها كمقاعد وطاولات بجوار مكونات الشيشة المنتشرة أيضًا في كل مكان، يتّكئ تقاوي على الأرض مسكًا بقطعةٍ من الكرتون المقوى يصافحُ بها الهواء يمينًا ويسارًا ليزيد من وحرارة الفحم على موقد الشيشة، والماءُ في قاعه يتقافزُ من سحب هلال شهيقًا ملوثًا منها من خلال طرفِ الخوص الخارج منها، الاثنان يجلسان على الأرض وثالثهما الشيشةُ ويحتلُّ الدخانُ المتطايرُ من الشيشةِ بما يحتويه من الحشيش هذا المكانَ بلا منازعٍ، وبعد أن وثق تقاوي أن الفحمَ وصلَ لدرجة الحرارة المثاليةِ تركَ قطعةَ الكرتون من يدهِ والتفَّ حوله ليمسكَ بكتابٍ ضخمٍ كان عنوانه "ديوان أبي الطيّب المتنبي"، وما أن لمح هلالُ الاسم حتى قاله له مازحًا وهو فاقدٌ للزمن والمكان من أثر ما يتناوله منذ ثلاث ساعات:

- إيه حاتقلبها ندوة ثقافية وتقول شعر كمان.. مش كفاية إنك مقعدني وسط كل الكتب دي مش ناقصة جنان.. إنت ليه محسسني إنها ساقية تقاوي..

الصـــــالون الأدبي.. منـاقشـــــة في أدب المـاشـــــة والتهويش.. مع الشـــاعر تقاوي.. شـــاعر مُرهف صاحب المشاعل والأحاشيش.

تملكَهُ سـعالٌ شـديد وسـطَ ضـحكاته العالية مما جعل تقاوي ينظر إليه محاولًا رسم ابتسـامةٍ مصـطنعةٍ وهو يقول:

- تصـــدق حلوة.. أبقى أفكر أعملها.. وأهو كله تفتيح دماغ وتنظيم عقول.

شرَدَ تقاوي قليلًا ثم تنهَّدَ بصوتٍ عالٍ وقال:

- أقوللك إيـه مـانـا كنت فـاكر نفســـي حابقى شـــاعر مشـــهور.. مـافيش حد كنت أعرف إنـه عنده كُتب ومش عـايزهـا إلا ولازم أروح أخـدهـا منـه على طول.. مافيش كتاب قدامك ماقريتوش.. وفي الآخر كله طلع على فاشـوش.. وماحصّـلتش حتى شـاعر مجهول.

- ليه يا عم ما ربنا كرمك من وســـع وبقيت شـــاعر مسطول.

علَتْ ضـــحكـاتهمـا وازدادت عندما فتح تقاوي الكتابَ الذي كان يمسكُهُ ليخرجَ منه القداحة ليشعلَ سيجارتَهُ الملغمة بـالحشــيش ثم ينـاولَها لهلال الذي اســتبدلها بشيشتِهِ الخاصة، فحاول تقاوي قلبَ ضفةِ السخريةِ منه إلى هلال قائلًا:

- هو أبوك ملعون بجد يا هلال؟ زي ما عليه بيتقال.. طب وإنتوا مش خايفين اللعنة تطولكم انتم كمان؟ زي ما طالت الطير والمواشي والأرض والفلاحين والعمال.

ينظرُ له هلال غاضبًا ويلقي سيجارته المميزة على الأرض وهو ينهضُ ليطفئها بقدمِهِ كأنه يدفنُها في الأرض من شدةِ العصبية التي تملكتْهُ وهو يقول:

- ماتقلقش يا تقاوي ربّك حايسترها علينا.. وحفيظة أختي حاتتجوز من واحد مليونير حاياخدنا من إيدينا وفي العز حايرمينا.. آه صحيح فرحها يوم الخميس اللي جاي وأنت أكيد جاي أهو عشان نفك شوية من اللعنة اللي حتمسك فينا.. أما أبويا فهو ملعون مش محتاجة.. ملعون من قبل ماتعرفوا عن اللعنة دي

حاجة.. وأنا في دماغي مشــروع حابقى أتكلم معاك فيه.. بس مش النهاردة يوم تاني أكون فايق فيه.

خرج هلال من بيت تقاوي وهو يبذلُ مجهودًا في اتزان خطوتِـهِ قليلًا حتى يســـتطيعَ أن يدركَ طريقَ عودتِـهِ، خرجَ وتركَ تقاوي جالسًــا في مكانه صــامتًا مصــدومًا مما سمعَ، تباطأت ضرباتُ قلبِهِ بشكلٍ ملحوظٍ والعرقُ أعلن الإشهار على وجهه، ثم لمعتْ عيناهُ وظل متمالكًا نفسهُ لثوانٍ معدودةٍ حتى انفجر بالبكاء واحتضنت ساقاهُ رأسَــه واهتزَّ من شــدةِ البكاءِ كأن زلزالًا اختصّــه هو وحده بضــربة، ظلَّ هكذا حتى نهضَ صــارخًا ووجهُهُ يلمع من غرقه ودموعِه ضــاربًا ما أمامه بكلتا يديه، ثم ظلَّ يبحثُ بداخلِ صندوقٍ خشبيٍ بجوار وسادتِهِ حتى أخرجَ منها سكينًا صغيرًا كان قد سرقهُ من أحدِ الحُواة الموجودين في المُولد، الذين يتظـاهرون بقدرتِهِم على رمي السكاكين دون إصابة الفتاة أمامهم وهم معصوبي العينين، فكانت سـرقتُهُ لهذا السكين منذ خمس سنوات من حقيبـةِ الحـاوي هو مـا تخيلـه انتصـــارًا عليـه، كان انتصــارًا صــبيانيًا وأصــبح له اســتخدامٌ الآن، فأمسـكه

وكـادت أنفـاســـه تهدأ قليلًا وتقدم حتى عتبة بيته قائلًا لنفسه:

- حفيظة دي عِشـقي أنا.. مِلكي أنا.. واللي يفرق بيني وبينها هو الموت وبس.. ولو اختيـارك يـا حفيظـة ماكانش ليَّ أنا تبقي اخترتي يكون عذابِك في قبرِك هو الونس.

ازدادت سرعةُ أنفاسِهِ تدريجيًا مع سرعةِ ضرباتِ قلبِهِ وهو يتقدَّمُ مســرعًا بخطواتٍ مشــتعلةٍ من الغضــبِ المسيطرِ على جحوظِ عينيه حتى وصل للدوار وراقبَ جميعَ جوانبه وأدركَ مكان غرفة حفيظة وشــعر أنه سعيد الحظ لأن بجوار شرفة حفيظة توجد شرفة لغرفة عويضــة التي تطلُّ على شــجرةٍ قديمةٍ تُســهّل عليه مهمتَه، فأطلقُ العنانَ لنفسه ووضعَ السكينَ بين أسنانه يقبضُ عليها، ثم قفز ليتمسَّك بإحدى الفروعِ المتساقطةِ أمامه، وظلَّ يتســلقُ حتى اقترب من الجزء العلوي لشرفة عويضة، فثبتَ مكانه وظلَّ يراقبُ أي تحرّكٍ قد يظهرُ من داخل غرفة عويضــة، لكنه لم يرهُ بشــكلٍ واضــحٍ فلقد وجده وهو مســتريح في آخر الغرفة على

مقعدٍ خشـبيّ ظهرهُ للشـرفة، لا يرى وجهه ولا يعرفُ هل هو مستيقظٌ أم في سُباته، راقبه بضع دقائق وعندما اطمأن قليلًا وشـــعر بأن قواهُ قد تتراخى فيهوى ويقع، أخذ قرارهُ وتســلقَّ ســور الشــرفة وعبر إلى الداخل وأمسك السكين بيده اليسرى، ثم سار قليلًا حتى وصلَ إلى الحائط الفاصـلِ بين غرفة عويضـة وغرفة حفيظة فمد رأسـه قليلًا ليراها فوجدها قد تركت زجاج شرفتها مفتوحًا فاختلس نظرة إلى الداخل ليجدها مسـتلقيةً على فراشـها في سكونٍ، فاشتعلت عيناه غضبًا، وعندما هَمَّ ليعبرَ هذا الحائطَ الفاصـلَ بين الشـرفتينِ سـمعَ صـوتًا قادمًا خلفهُ يقول:

- اقف يـا حرامي يا ابن الحرام.. هو دوار عويضـــة كان ناقصك إنت كمان!؟

وما كان من تقاوي بعد أن ثبتَ مكانه من الصدمة قليلًا إلا أن أســرع فالتفتَ بســرعةٍ ويدهُ ممدودةٌ بالســكين لتغرس في العين اليســرى لعويضـــة لتنفجر عينه دمًا ويصـدر صـرخةً عاليةً ويترنّح من الفزع سـاقطًا على الأرض، ومـا أن رأي تقـاوي مـا حـدث حتى قفزَ من

الشــــرفة على جذع الشـــجرة ثم على الأرض مبتعدًا بأســـرع قوة كان يمتلكها تاركًا خلفه صــراخ عويضـــة الغارق في دمه مما أيقظ أهلَ الدوار فبدأت الهمهمات وإنارة الغرف في كل زاوية فيه، لكنه شعرَ بأقدام قادمةٍ ناحيتَه، فتوارى خلف الحشائشِ الكثيفةِ ليجدَ أن صوت تلك الأقدام كانت لهلال الذي مازالَ يترنّح غيرَ متوازنٍ يحاولُ أن يعود للدوار، فثبتَ تقاوي مكانه حتى مر هلال وأدرك أنه ابتعد عنه بالقدر الكافي فأكمل هروبه مهرولًا حتى وصـــــل إلى بيتـه الخوص مرة أخرى وأغلق البابَ خلفه، ثم أسرعَ ليمسكَ بإناء الماء ليروى ظمأه، وعندما شـــعر أنه أغرقَ نفسَــــه من نهمه في الشـــرب حتى أفرغَ الإناء بالكامل، نظرَ إلى ملبســـه ليجدَهُ مبللًا، لكنهُ تفاجأ أنه ملوثٌ بالدماء أيضًـــا، فأيقن أن هذا حدث من لحظة فقعِهِ لعين عويضــــة فتناثر الدمُ على جلبابه دون أن يلاحظ من هول الموقف، وما أن تذكَّر ذلك حتى خلعَهَا ورماهَا في إحدى الأواني التي لديه وأشـــعل النارَ فيها وجلسَ بجانبِها يراقبُها وعيناهُ تلمعُ ببريقِ اللهبِ من شدةِ غضبِه.

****

كانت صـرخاتُ عويضــة هائلةً من شـدة الألم مما أدى لاستيقاظ كل من بالدوار مفزوعين متجهين إلى غرفته لمعرفة ما حدث ليجدوه على عتبة شـــرفته يحاول أن يســتندَ على طاولةٍ بجانبه لكي يقفَ ولكنه كان يتهاوى رغمًا عنه فاقدًا لاتزانه لا يرى أمامهُ حتى هُم لم يروا وجهه من كثرة الدماء التي تغطي عينيه، فســارع عبد العال إليه وسندَهُ حتى أوصلَه إلى الفراش بينما صاحت صــبرية في أم عواطف لتحضـــرَ منديلًا قطنيًا لتُربَطَ عيناهُ ليتوقّفَ النزيفُ، لكنَّ عبد العال صرخَ فيهم قائلًا:

- مش حاقدر ألفّ الجرح لسه فيه سكين.. هو صغير آه لكنــه غـارس في العين.. وانـا مـاعرفش كيف يتشـــال.. فين الدكتور جلال لازم يجي في الحال.. هِمّوا حد يشوفه فين؟

جرت فرحة بعد أن أشـــارتْ لها صــــبرية إلى غرفة الدكتور جلال فطرقتْ البابَ فلمْ يُجِب، حاولتْ أكثرَ من مرةٍ ولم يُجِب فتجرّأتْ وفتحتْ بابَ غرفتِهِ رغم أنَّ هذا من المحظورات عليها وعلى كل من في الدوار إلا أن الضـــرورات تُبيحُ المحظورات، ولكن حمدتْ ربها

فلم يكتشف ما فعلتهُ لأنه ليس بالغرفة من الأساس ولم يَبِت فيها، عادت لتخبرَهُم بهذا النبأ التعيسِ فسمعتْ صرخةً بصوتٍ أنثويٍّ ثم صوتٍ قويٍ لارتطام شيءٍ على الأرض، فأسرعتْ في خطواتِها قليلًا لتجدَ صبرية ترفعُ رأسَ حفيظة الساقطة على الأرض والتي لم تستطِع أن تتحمّلَ منظرَ والدِها فسقطتْ مغمي عليها في حينها، وقفتْ خلفها أم عواطف تناولُها زجاجة عطرٍ، وما أن وصلتْ بجوارهم حتى فزعتْ من صراخ عبد العال فيها من الداخل قائلًا:

- هاه يا بُلغة لاقيتي الدكتور جلال.. مش عارف أتصرف في دم أبويا اللي عمال ينسال.

ردتْ في توتّرٍ ملحوظ:

- مالاقيتهوش ولا بيّتْ في فرشِتُه.

ردَّ عبد العال محاولًا أن يتمالكَ أعصابه:

- يبقى لازم نروحله العيادة وهو يسعفه.

وما أن حمله عبد العال من فراشه ودمه يتطاير عليه حتى وصل للدرَج ليتفاجأ بالدكتور جلال أمامه وهو

يصعدُ الدَرَج بصعوبةٍ ويأخذ نفسه كأنه يلهثُ والعرقُ يتساقطُ من جبينه كالمطر، فيقفُ عبد العال مكانه قائلًا بشيءٍ من الارتياح:

- الحمد لله يا دكتور إنك وصلت.. إلحقه دمه حيتصفى أنا اتوترت.

يلتقطُ الدكتور جلال أنفاسهُ وهو ينظرُ بدهشةٍ لعبد العال الذي يقفُ أمامه ويحملُ والدهما و الدم يتساقطُ منهُما، ظلَّ هكذا متسمر مكانه حتى أفاقَ من تشتته صيحة عبد العال فيه:

- يلا دكتووووور.

عاد له وعيه قليلًا وتقدمه وأشار له أن يأتيَ ليعودا مرةً أخرى إلى غرفةِ والدِهما ولاحظ أنّ صبرية على عتبتِها، وحفيظة التي استعادتْ وعيَها قليلًا ولكنها ما زالتْ تفترشُ الأرضَ حتى ترى منظرَ الدّمِ المتساقطِ من والدِهِم المحمول على يد عبد العال فسقطت مرةً أخرى مغشيًّا عليها فأشار لوالدته أن تكملَ ما كانت تفعله معها ويدخلا الغرفةَ، ووضع عبد العال والده مرةً

أخرى على فراشِهِ، لقد أصبحت بشرته ذاتُ لونٍ أبيض شـــفافة قليلًا، تظهر العظامُ التي تحتها بشـــكلٍ ملحوظٍ رغمِ الدم المسيطر على بقاعٍ كثيرة من جسـدهِ وهذا ما يثبتُ أنه في مرحلة هبوطٍ حاد لضـغط الدم، فقام جلال بالاتصـال بمسـاعدهِ إسماعيل لطلب بعض المستلزمات الطبية والعلاج المطلوب ثم أسرع إلى غرفته وأحضر حقيبةً وصـندوق إسـعافات أولية وقام بإخراج السـكينة واســـتطـاع إيقاف النزيف وأثنـاء ذلك مر هلال عليهم غير مكترثٍ بما يحدث يترنحُ ويتمـايلُ كثيرًا وما فعله هو أنه وقف لبضع ثوانٍ متسائلًا:

- هو مات ولا لسه في باقي في عمره؟

وعندما أجابه بعضـــــهم بالنفي وبعضـــــهم الآخر بعدم المعرفة كان رده أنه أكمل طريقه إلى غرفته وقال:

- حادخل أنام وأصحى تكونوا اتأكدتم من خبره.

لم تســـتحوذ تلـك الكلمـات على الكثير من انتبـاه الموجودين، ليس أكثر من زيـارة العمدة المفاجئة رغم أن ما حدث لعويضـة لم يعرف به أحد حتى الآن بسبب

كثرة الأحداث الســـريعة في تلك الليلة فالكل انشـــغل ببعض التساؤلات، من فعل هذا بعويضــة؟ ولماذا فعل به ذلك؟ وما الذي جعل الدكتور جلال يعود للدوار وهو يلهث بهذا الشـــكل كأن هناك أحدٌ يركضُ خلفه؟ وماذا أصاب هلال ومن قبله صبرية؟ وهل إجابة تلك الأسئلة لازمة الآن في هذا الوقت؟ فتركوا العمدة يقف بجانبهم صــامتين ينظرون إلى الدكتور جلال وإسـماعيل الذي جاء بعد العمدة بدقائق ليقومَ بمعالجةِ عويضــة ووضــعِ كيسٍ من الدم على عامودِ لتعويضـــه ما فقده من دم وعامود آخر معلق عليه محلول، أشــار الدكتور جلال للجميع أن يتركوا الغرفة له ليســتريح، وبالفعل خرج الجميعُ وتوجهوا ناحيةَ الدَرَج للنزولِ ففاجأهم عبد العال بسؤاله الموجه لجلال:

- إيه حالته دلوقتي يا دكتور؟

وقف جلال مكانـه ووقف الجميع من بعـدِهِ وردَّ عليـه دون أن يلتفت له:

- أبوك عينُه الشــمال راحتْ.. وطبعًا السـكر هو اللي زود سيولة الدم.. وعشـان كده مسـألة وقف النزيف

كانت عندي أهم.. أما مين السبب في ده؟ أو ليه عمل كده؟ أو كان جاي يعمل إيه؟ دا المهم.

ثم التفتَ ونظرَ إلى الجميع وهو يقول محذرًا:

- لكن من غير مباحث ولا بوليس.. مش ناقصين لت وعجن وكُتر حديث.. لعنة أبوكم بقت لبانة في حنك الكل.. ودا اللي خلاني أعالجه هنا مش ناقصه ذل.. نعدي بس فرح حفيظة يوم الخميس.. وساعتها نقول السكر ضيّع عين من عينيه.. الكلام ده يحفظه صَم الكل.. وعلى بكرة بليل حايفوق وأنا حابقى أخلي إسماعيل عليه يطل.. كلامي اتفهم؟

فأجابه الجميعُ بالموافقة، ثم تقدّم العمدة ناحيته وأمسك ذراعَهُ قائلًا له:

- عايزك ضروري برة

نظرَ له جلال نظرةَ اشمئزاز وغضب وتابعه وهو يسلم على أخته صبرية ويودعها ويواسيها فيما حدث وهو ينظر له بين الحين والآخر، حتى وصل لعتبة الدوارِ وألقى نظرةً عليه، أمرته أن يأتي وبالفعل تحرك جلال

وخرج من باب الدوار ليجد العمدة واقفًا بجوار عربته مدخنًا سيجارته ينظر مبتسمًا ثم أردف قائلًا:

- مالك يا جلال؟ ايه اللي حصل ده ما تجمد قلبك؟ ايه يعني مات في يدك.. راح وغار.. ايه اللي خلاك تجري وتجريني وراك لحد الدوار؟

كاد أن يصيحَ جلال ولكنه أدركَ أين هو فأخفض صوته قائلًا في تجهم:

- دا مات يا عمدة.. فاهم يعني إيه مات.. يعني حياتي.. مستقبلي ادمروا.. وحاتفضح.. فاهم يعني إيه حاتفضح.. يعني الحاجة اللي كان بيتفاخر بيها أبويا ويتمنظر قدام الخلق.. بقى قاتل وجوه السجن حاتزق.

ابتسم العمدة ثم علتْ ضحكاته تدريجيًا ووضع يديه الاثنتين على كتف جلال قائلًا:

- عادي ولا يهمك.. دا مالوش دية.. حاجة كده رزية مرمية.. يعني مالوش أهل ولا ناس.. ولو ليه مش حاتشيل همه من الأساس.. أنت مش دكتور أكتب

تقرير أنـه كـان عيـان وعنـده السُـــل.. أمر الله ونفذ وإنت بتكشــف عليه.. وتبقى في الســليم قدام الكل.. وشـهادة وفاة زينـة.. وانـا العمدة حاصدق عليها.. ولا حد حايقطع علينـا.. ويندفن ويندفن سـره معاه.. يعنـي حد حايسـأل وراه.. روق يا دكتور.. قوم بينا نداري على الليلة قبل ماينفضح المستور.

هدأت دقات قلب جلال معلنةً ارتياحها لِما سمعته فقال:

- مش عارف يا عمدة.. يعنـي اكده أحنا في الســـليم.. مش عارف أنا ليه قلقان!؟

- دا ســليم الســـليم كمان.. المهم دلوقيت مدام الراجل مـات.. متشـــوفيلي منه كام حاجة كمان.. هات منه بقيت القايمة المطلوبة.. وأنـا حـأغرقك فلوس عشــان متبقاش قلقان.

ركـب جلال مع العمـدة عربتـه ولحق بهم إســـمـاعيل فـأشــــار لـه العمـدة أن يجلس علـى خلفيـة العربيـة من الخلفِ وبالفعل فعلها بعد أن ركض خلفهم مسافة ليست بالقليلة، و الجميع مستلقي داخل الدوار في غرفته يفكرُ

فيما حدث تلك الليلة من أحداثٍ وكثرت بها التساؤلات ولكن كان لعبد العال تفسيرات أخرى لما حدث واتضح ذلك حين قال لنفسه:

- أكيد اللي فقع عين أبويا كان ليه غرض.. والغرض دا في أوضة أبويا.. بتحاول يا هارون بيه تاخد حُجة الأرض.. باعت حد يسرقها ويضيع حقي عليا.. لا والله ما حايغفللي جفن الليلة إلا والحُجة تبقى معايا.

خرج عبد العال من غرفته يخطو حسيسًا متجهًا إلى غرفة والده، وصل لها دون أن يراه أحدٌ ودخلها وأغلق الباب من خلفه برفق، ثم تقدّم من والده الذي يرثي لحالته، عينٌ مغطاه بشاشٍ أبيض ويده اليسرى تشوّهت من أثر الحريق ومعلق بها كيس من الدم على عامود معدني واليد اليمني معلق بها أنبوب المحلول، فمد يده في صدر والده ليمسكَ بالمفتاحِ المربوط بجيبه الداخلي، فهذا هو سر والده الذي أفشاه له ظنًا منه أنه ذراعهُ اليمين، بالفعل نجحَ في إخراجه وذهبَ ناحيةَ خزانة الملابس وفتح ثالث باب بها لتظهر خزانةٌ صغيرةٌ من الصلب تتوسطه، فدخل عبد العال المفتاح

بها وفتحها لياخذ ما بها من مال لم يكن كثيرًا كما كان يعتقدُ وبعضِ الأوراقِ التي تخصُّ والده والأهم هي حُجة الأرض فقال لنفسه فرحًا:

- لقيتها.. الحجة خلاص يا عبد العال.. في يدك و حايتبدل الحال.. أقبض الدولارات من هارون بيه.. و التأشيرة و أهج.. والله وحتلعب يا واد يا عبد العال.. باب حظلك سامعه بيدق.. وأنا كده ما خنتكش يابا.. و لا حاجة.. ولا عشان نفسي محتاجة.. لاا دا حقي خلال سنين عمري.. و أنا مدفون في أرضي.. زرع و قلع و شقى.. و ياريت حقي أتلقى.. وأخدين خيري و تعبي.. وعرقي اللي راح هدر.. حقي دا يا أبويا.. حقي و دا حكم القدر.

ثم اتجه لوالدِهِ مرةً أخرى ليعيدَ المفتاح مكانه وبالفعل ينجحُ في ذلك ولكنه عندما حاول أن يخرجَ من الغرفةِ تعثّر في عامود المحلولِ الطبيّ مما اضطره للوقوعِ على يد والده المعلق بها المحلول فانكسر سنُّ حقنةِ المحلولِ داخلَ يد عويضة وبالطبع لم يشعر عبد العال بذلك لانه أسرع في تثبيت العامود مكانه مرة أخرى

ونظر ليد والده وجد المحلول ما زال معلقًا في يده فاطمأنَ، وذهب ليتأكدَ أن أحدًا لم يسمعه، وعندما اطمأن خرج عويضة من الغرفة عائدًا إلى غرفته منتشيًا منتصرًا تاركًا والده يواجه مصير ما فعله به.

****

لم تكن تلك الساعاتُ العصيبةُ التي يمر بها عويضة وهو في غيبوبته الخاصة إلا ممرًا يعبُرُ منه إلى عالمه الخاص، ليجدَ نفسَه في وسط أرضه التي عاد لونها أخضرًا، عادت لسابقِ عهدِها فلقد شعر بأناملِ قدميه العاريتين بملمس الأرض الرطب من تحته، ذراعه اليسرى سليمة بدون أي تشوّهات، شعر بدفئ أشعة الشمس عليها دون أن تزيد من ألمه، ملأ رئتيه بنسمةِ هواءٍ نقيّة، حاول أن ينظرَ حولَه، لم يجد أحدًا رغم اتساع الرقعة الخضراء أمامه، ولكنه فوجئ بصوت أنفاس شخصٍ ما على يمينه فالتفتَ ناحيةَ مصدرِ الصوتِ ليجدَ شيخًا مُسنًا قد بلغ من العُمر أرذلَه يَشِعُّ وجهُهُ نورًا رغم شقوقِ الزمن الظاهرةِ على وجهِه، تطولُ لحيتُهُ البيضاء صَدرَه ويرتدي جلبابًا أبيض وعليه عباءةٌ وعمامةٌ خضراوين، وقد أخفت العمامةُ ما تبقى من شعرهِ الأبيض وتفوح منه رائحةُ المِسك، فقفز عويضة فرحًا وهو يقول:

- الشيخ صابح المعداوي.. إزيك يا شيخنا يا سيدنا يا تاج راسنا.. ماتعرفش إحنا بعدك إيه جرالنا.. واللي جرى للبلد كوم واللي جرالي كوم.. لا أنا عارف دا

غضـــب من ربنـا ولا ابتلاء واختبـار بتحط فيه كل كام يوم.

أمسـكَ الشـيخُ صـابح ذراعَ عويضـة كأنه يتعكّز عليه وبـدأ هو بخطوتـه الأولى ليتبعـه عويضــــة ثم أردف بهدوء يقول:

- اللي يشـــوف بلاوي النـاس يحمد ربنا على نعمته.. ويدعيلهم لاجل مايلاقي اللي يدعيله في بلوته.. ربك لطيف على عبـاده بس إنـت أطلـب رحمتـه.. مين عارف فينا بس.. هو فين نصيبه وإيه قسمته؟

- يا شيخنا والله الحمد مابيفارق لساني.. واللي حصلي كتير قواني.. لكن اللي بيحصل غريب وعجيب.. أنا خســـرت الغريب والقريب.. الكل بينفر مني كأني طاعون.. حتى ولادي خرجوا عن طوعي.. نظرات اللي حواليا خلتني مجنون.. والكرب شـــديد عليا بحاول أصـــمد لكن مش بإيديا.. قربت أصـــدق زي مابيقولوا إني ملعون.

وما أن قال هذا حتى اختفى الشيخُ صابح تمامًا ورأى أمامه الأرض تنشقُّ ويخرجُ منها جسدٌ بشريٌ لرجلٍ يغمُرُهُ الطينُ برغم تشوّه بشرتهِ، وقفَ ويداهُ بجانبِهِ ولكن عندما حاول أن يتأمل عويضة ملامحهُ بشكلٍ أدق فوجئ أن هذا الجسدَ هو تكوينُ جسدِهِ بملامحِهِ نفسها، تمثالٌ له نفسُ الطولِ، لكن بشرةَ الآخر شاحبةٌ أكثر منه، وعندما حاول أن يدنو منه تفاجأ بأن جلدَ شبيهِهِ قد تشقَّقَ وخرجتْ منه ديدانُ الأرض، فرجعَ إلى الخلف عدةَ خطواتٍ مُشمئزًا، ليجد أبناءه الأربعة قادمين من خلف شبيهه ممسكينَ في أيديهم مشاعل نارية تضيء بلهيبها النهارَ حتى وصلوا له فنظروا إليه مبتسمين ومد كل واحدٍ فيهم شعلةً لتمسكَ النارُ في شبيهه وتتساقطُ من عليه الديدان.

ظلّت النيرانُ تزدادُ حتى حوّلت جسدَه إلى تمثالٍ من الفخار بسببِ طبقةِ الطين التي كانت عليه، ثم فجأة تحولت ألسنة النار التي على المشاعل إلى فؤوس زراعية ولكن هذه المرة انضم لهم العمدة وهارون بيه وإسماعيل حاملين مثلهم فؤوسهم، ثم أتت صبرية خلفهم بخطواتها الرزينة الهادئة التي كانت تحمل مثلهم

الفأس، وعندما أحاطوا بالتمثال كدائرة ينتصفها التمثال وكان عويضة بالنسبة لهم هو الزواية صفر، صُدم وهو يراقب الجميع وهم ينظرون له مبتسمين ثم يعلون بالفؤوس التي يمسكونها ويهبطون على التمثال بكل قوةٍ مهشمينه وهم يصرخون، مما جعل عويضة يتراجع إلى الخلف ثم يهرول بعيدًا ظنًا منه أنهم سوف يكملون عليه بعد أن ينتهوا من تمثاله، فاختبأ خلف شجرةٍ يحاولُ أن يلتقطَ أنفاسَه، وعندما حاولَ أن يُخرجَ رأسه قليلًا ليتأكدَ هل هم يتبعونهُ أم لا، فوجئ بيدٍ تمسكُ ذراعَهُ وتجذبُهُ ليعودَ مكانَهُ مرةً أخرى، فكانت تلك اليدُ هي يد الشيخِ صابح الذي همسَ له في أذنِهِ أمرَهُ أن يتبعهُ دون أن ينظرَ خلفه، وبالفعل نفذَ عويضة ما أمره به الشيخ وسارَ خلفَه وهو يضعُ رأسَهُ خلفَ كتف الشيخ ليحتمي فيه حتى سمع الشيخ يقول له:

- حاقوللك حكمة حتنفعك قالوها الناس اللي قَبلك.. عيش مَنسي ولا تاخد كل حاجة على قَلبك.. وماتديش بسهولة الأمان كده لأي إنسان.. حتصحى يوم حتلاقيه هو أول واحد قَلَبَك.

- يعني توصل إني أشوف أقرب الناس ليا فرحانين.. وهما بيولعوا فيا النار ولا وهما بيكسروني بمساعدة ناس تانيين.

وقفَ الشيخ وهو يلتفتُ لعويضة ويمسكُ ذراعيه بيديه الاثنتين ثم نظرَ إلى السماءِ قائلًا:

- ماينفعش تتعب وتتبهدل وربنا مايكرمكش.. وتقول إزاي يكرم غيري وهو زيي ماتعبش.. خلي عندك يقين إن ربك كريم ودي كفاية.. هو إنت تعرف الخير فين؟ طبعًا لأ ماتعرفش.

ثم مالَ الشيخ صباح برأسِه يمينًا ليلتفتَ معه عويضة ويجدَ أمامه دواره، فابتسمُ عويضة ولكن تلاشت ابتسامته عندما عاد لينظر إلى الخلف حزينًا فقال له الشيخ وهو يحنو عليه بيده:

- اعمل الخير يا ابني وارميه البحر.. مهما كان اللي بتعامله ندل ولا قليل الأصل.. دا طبعك يا عويضة ودا طبعه والطبع غلاب.. حيشوف خيرك حصوة حتى لو كان قصر.

وأشـار لـه ليذهبَ إلى دوارِهِ وبالفعل أنصت لـه عويضـة وتقـدم فـي اتجـاة بـاب دواره الـذي وجـده مفتوحًـا فـدنـا ودخله قلِقًا، وعندما التفت للشـيخ صـابح وجده ينظر لـه غاضـبًا، فاهتزت الأرضُ من تحت عويضـة وتشـققت الحوائطُ من حوله ليجدَ الشيخ صابح يصرُخُ فيه قائلًا:

- دا اختبار يا عويضــة.. يا تبقى نبي.. يا تبقي غبي.. يا تبقى نبي.. يا تبقى غبي...

ظلَّ يكررُها وعويضــة يحاولُ الخروجَ من الدوار لكن السقف هوى فوق رأسه فحاول بصعوبةٍ أن يفتحَ عينيه فوجدَ خيالاتٍ لشخصينِ أمامَه يقولُ أحدهما للآخر:

- في صديد مطرح إبرة المحلول.. وانتشر في دراعه وللأسف هو عنده السكر.. إيه الحلول؟

- ممكن نفتح الجرح وننظفه في الحال.

- موضـــوع إن الحـل في الجرح والتنظيف ملغي ويعتبر التفكير فيه ممنوع.

- يعني الحل إيه يا دكتور جلال؟

- مافيش يا إســـماعيل غير إننا نعمل بتر لإيده اليمين لحد الكوع

- للأسف مافيش حل تاني

سمع عويضـة تلك الكلمات مصـدومًا فعاد إلى غيبوبته مـــــــــــرة أخــــــــــــرى.

****

تعالتْ أصواتُ زغاريد النساء واختلطت مع أصوات طلقات البنادق من خفر العمدة تحيةً للعُرس المُقام بمنزله وزحام أهل البلد على الولائم تحت الإضاءات الملونة، كل ذلك وأكثر لعُرس الأميرة حفيظة الذي نُقلَ إلى دوار خالها العمدة بعد الأحداث الأخيرة التي حدثت، ولكي تكون محاولة لإلهاء أهالي البلد عن لعنة عويضة والقرار الذي اتُّخذ بمنعِ خروجِهِ من مقرّ إقامته الوحيدة (الدّوار)، وبالفعل كان عُرسًا مهيبًا تزاحمت فيه الأهالي حول الراقصة وتنافسوا حولها بالرقصِ بالعصا والخيول وتنوّعت فيه الأغاني وآلات العزف من طبلٍ ومِزمارٍ وربابةٍ وناي، والأطفالُ تتقافزُ فرحًا وتركضُ في جميع الأنحاء وبداخل دوار العمدة يجتمعُ كبارُ رجال البلد وبالخلف تتزاحمُ النساءُ في تحضير الولائم والمشروبات، وكانت منهن بطبيعة الحال أم عواطف التي كانت منهمكةً في تنظيف الصحون تتصبب عرقًا وتلقي نظرةً بين الحين والآخر وتلاحظ فرحة التي تتكاسل وتتباطأ في مساعدتها في تنظيف الصحون مما جعلها تهمسُ لها بغضبٍ وحدّةٍ قائلةً:

- إنتي يا بت.. إنتي يا بت يا فرحة.. اللهي جاموسة دهشانة تنطحك ناطحة.

ردّت عليها ببرود:

- إيه يامة في إيه؟

جذبتْها أمُّها من ذراعها قائلةً:

- سايباني غرقانة في الصحون.. وإيدي باشت من الصابون.. وإنتي عاملة فيها (عبده تَمبل)

- ليه يامة مانا طالع عيني معاكي من الأول.. كَنْس ومسْح وتنظيف وترويق.. وغسل صحون كله ورا بعضه كده مافيش حتى بلعان ريق.. وأهل البيت اللي شغالين فيه.. فايتين الراجل اللي كان لاممهم حواليه.. بعِزُّه وأرضُه وماله وحبُّه ليهم.. فاتوه في اول وقعة لِيه.. ليَه؟ ما دام حتيجي عليهم.. جايين يفرحوا ويغنوا ويرقصوا وهو راقد في سريره ومقطوعة إيديه.. الناس دي جبابرة أوي يامة مش جبابرة علينا إحنا بس يرضي مين ده بالذمة؟

نظرتْ أمُّها حولَها متخوفةً أن يكونَ أحدٌ قد سـمعَ ما قالتهُ فرحة متزمرةً ثم أردفت هامسةً:

- انكتمي يا بت دي شغلتنا ودي قيمتنا.

قامت فرحة غاضـبة وهي تزيحُ ما على ملابسـها من أتربةٍ وتهندمُ جلبابَها فردَّتْ قائلةً:

- لا يامة خلاص حيتغير حالنا وقريب حتتسـاوى الروس.. واللي كانوا بيذلونا وبيدوسـوا علينا إحنا اللي عليهم حاندوس.. سـيبيني يامة في حالي.. سيبيني أشوف حالي.

خرجت فرحة من الباب الخلفي للمطبخ تاركةً خلفها نداءات والدتها أم عواطف لها دون أن تكترثَ واختفت وسـط الأهالي، وعلى بُعد أمتارٍ من هذا البابِ وتحديدًا بالشـرفة الخلفيّة للدوار كان جلالُ يقفُ مخاطبًا العمدة بعيدًا عن الأنظار ولكن يتضـح لمن يراهما من بعيد أنّهما يتشـاجران من حركةِ أيديهما وحديثهما الذي وصل إلى أن قال جلال للعمدة في حدّة وصرامة:

- مابقيتش باكل من الكلام ده يا عمدة.. حقي أخدوا قبل ما ابدأ وأنا لسه بعيد.. ولو كنت إنت عبد للمادة.. أنا بقى كاهن ليها.. يعني أخد حقي القديم قبل ما أبتدي في أي جديد.

- كبرت يا قط وبقيت بتخربش.. فين أيام ما كنت بجوز بواكي بتتنطط وبتفرفش.

ضحك جلال ساخرًا ووضع يدَهُ على كتف العمدة وأردف قائلًا:

- تربيتك بقى يا عمدة.. قصدي يا خالي.. فلوسي يومين بالكتير وتبعتهالي.. خش شوف معازيمك يا عمدة وأنا حاحصلك دوغري

- حاضر يا ابن أختي يا دكتور إنت تؤمرني.

قالها وهو يجزّ على أسنانه غاضبًا ثم دلف للداخل ليسلّم على من أتوا ليباركوا تلك الزيجة وأثناء مرورهِ بساحةِ الدوار تبادلَ التهاني والمباركة بين كبار رجال البلد حتى توقّف ليلقيَ التحية على هارون بيه الذي كان يجلسُ وبجواره عبد العال مُنهمِكيْن في حديثٍ خاص،

وذلك مـا لاحظـه العمـدة عنـدمـا دنـى منهمـا فتوقّفَـا عن الحديث تمامًا، مما جعلَ العمدةَ يضـــطرَّ أن يتصـــنّعَ انشـــغالَه بعدّةِ أمورٍ ويلقي على هارون بيه الترحيب اللازم ويعتـذر بمـا لـديـه من أعمـالٍ تـاركًـا إيـاهمـا في ســـرّهمـا، ومـا أن بعـد عدّة خطواتٍ عنـهما حتى عاود عبد العال حديثَهُ لهارون بيه هامسًا:

- زي مـا قولتلك يا هارون بيـه.. آخد الفلوس وفوقيهم الباسبور والتأشيرة عليه.. سـاعتها تستلم مني حُجة الأرض معزّ ز مكرم.

أخذَ هارون بيه نفسًا من لفافةِ تبغهِ الكوبيّ ورَدَّ مبتسمًا:

- حقك طبعًا وماتقلقش الأمورة متيسرة.. بكرة أو بعده بالكتير تيجي تسـتلم باسـبورك وانت مطمّن.. وزي مـا اتفقـت معـاك على طريقـة خروجـك من البلـد لإيطاليا.. طريقة ســـهلة عليا ومش غالية.. وهناك حتلاقي اللي يساعدك إزاي تبتدي.

- تســـلم يا هارون بيه والله دا كتير.. وبإذن الله الحُجّة حتكون عندك بكرة أو بعده بالكتير.

لفتَ انتباهَهما ارتفاعُ صـــوت طَرْقِ الطبول وزغاريدِ النســـاء فـاتجهـا نـاحيتَـهُ ليكونَ إعلانًـا عن بـدايـة زفّ العروســين، نزلتْ صــبرية بكبريائها المعروفة كملكةٍ تتقدمُ قليلًا عن العروسة حفيظة، الأميرةُ بزينتها البراقة كأنها حورية من الجنة تتلألأ بالفصوص المطرّزة على فستانها وينير وجهها بجانب ابتسامتها بياضُ بشرتها، تضعُ يديها في يد عريسها الذي يكبُرها بضعف عمرها أو أكثر، حاد الملامح بشكل كبير تلمع عيناه من الفرحة ويشــتد ســواد شــعره أو ما تبقى منه بســبب الصــبغة المســـتخدمة، ظهرتْ عليه علاماتُ الصـــحة الجيدة والفحولة تغلفها بشكلٍ جيد وأنيقٍ بسترته السوداء ذات المنـديـل الأبيض الحرير البـارز من جيبـه، وزّعَ الابتسامات على كل من تقع عيناه عليه وهو يمرُّ بينهم، وبين الحين والأخر يميل بعينيه ليقتنصَ جرعةَ جمالٍ من فريسته الليلة ليعيد شحن مشاعره مرةً أخرى فهو متعطشٌ لافتراسها بشكلٍ مريض.

وعلى مسافة ليست ببعيدة كان تقاوي واقفًا يدخنُ لفافةَ تبغٍ غير شرعية، يكسو بياضَ عينيه اللونُ الأحمرُ من كثرةِ ما دخَّنهُ من ليلةِ أمس، ولكن لم يكن هذا الســـببَ

الوحيدَ لذلك فنيران ثورتـهِ وحقدِه زادت منها الكثير، غضـــبه الذي جعل الشـــيطان يتلاعب به كالعجين بين يـديـه حتى أدرك قراره وكيف يكونُ انتقـامُـه؟ وكيف يشفي غليلَهُ منها؟ فهمسَ لنفسه قائلًا:

- حاتروحي مني فين يا بت الملعون

وعلى مقربةٍ من زفةِ العروســـين كان عبد العال يقفُ فرِحًا يصفّقُ مع دقاتِ الطبول، وفجأةً شعرَ بأحدٍ ينكزُهُ نكزةً خفيفة في ذراعه الأيســـر فالتفتَ ليجدَها "فرحة" تبتسـمُ له ثم تشـيرُ له أنها تريدهُ في حديثٍ جانبيٍّ بعيدًا عن هذا الزحام، تحركَ عبد العال طواعيةً مســـتغربًا طلَبَها ليجدَها ابتعدت كثيرًا عن الزحام حتى وقفتْ بجانب شـــجرةٍ كبيرةٍ في أطراف أرض دوار العمدة تنظرُ إليه في خجلٍ حتى وصل لها فأردف سائلًا:

- خير يا بت يا فرحة في إيه؟ ســـاحباني وراكي زي الجاموســـة كده ليه؟ إيه الأمر الخطير اللي عايزاني فيه؟

التفتت فرحة حولها ثم نظرت إليه بحدّةٍ وصرامة قائلة:

- أنا عارفة إنك سرقت حُجّة الدوار من أبوك.. شوفتك يوميها خارج من أوضـــته.. بعد ما بالصـــدفة قبلها بكام ســـاعة خلتني ســـمعت اتفاقك مع هارون بيه وعرفت إن أبوك بيعته.. وإنه حيكافئك بفلوس كتير وليه ناس على أوروبا حيهربوك.

تصبّبَ عبد العال عرقًا وقلتْ درجةُ حرارةِ جسدهِ، فلم يكن يتوقعُ أن يكونَ هنـاك أحدٌ على علم بكل هذا، كان يريد أن تتمَّ تلك الخطوةُ بنجاحٍ وسـرية، وتعتبرُ مسـألةُ هروبه واختفائه هي شـــغلهم الشـــاغل حينها، ولا يعلمُ أحدٌ بـأمر الحُجـة إلا بعـد أن يبـدأ هـارون بيـه بـأولى خطواته الفعلية في اسـتلام الأرض، حينها يكونُ هو قد ترك تلكَ القـارة وأصـــبح بعيدًا في قارة أخرى، وأمام نظرات فرحـة الثـابتـةِ الواثقـةِ من قوةِ ماتعلمهُ، وجد أن نفيَه لما قالتهُ ســيدعو إلى المُماطلةِ دون احتســاب ردّ فعلها أو من أيضًـا على علمٍ بما تعرفهُ هي، كل ما فعله هو أنـه اقترب منها مرتعشًا وأردف قائلًا:

- إنتـي عايزة إيه؟

لمعت عيناها من نشوة الانتصار ثم أردفت قائلةً؟

- مش عـايزة كتير.. همـا طلبين بس وحتطلع إنـت كمان كسبان؟

- اتشرطي عليا اتشرطي كمان.

قالها عبد العال ساخرًا، فدنت منه فرحة أكثر ووضعت يديها على صدرِه في حنانٍ أنثويٍّ قائلة:

- تتجوزني وأســـافر معـاك أوروبـا ونلون حـالنـا البهتان؟!

صُـــدِم عبد العال من طلبها فهو لم يكنْ يتوقعه تمامًا، ثبتَ مكانه يفكّرُ في عرضِـــها وتحت تأثيرِ لمســـاتها الرقيقةِ لـه وعينيها التي تلمعُ وهي تنظر إليه في دلال، وسخونةِ أنفاسِها القريبةِ منه أدركَ أنّه يحتاجُ في غربتهِ إلى من تخفّفُ عنـه متـاعبـهُ الكثير وتهوّنُ وحـدتَـه، وأدرك أنه بالفعل مثلها رابح وأكثر، فابتسم لها ووضعَ يديهِ على خدّيْها وهو يقول:

- موافق يا بت.

توقّفَ لحظةً ثمَّ أردفَ قائلًا:

- قصـــدي يا عروســـة.. حابلغ هارون بيه بالجديد.. وكلها كام يوم وهو حيتصرف أكيد.

****

لم تكنْ نهايةُ تلكَ الليلةِ سعيدةً بشكلٍ كبير، فما أنْ ودَّعتْ صبريّة ابنتَها العروسة حفيظة لتسافر مع زوجها، قرَّر أخوها العمدة أن يوصّلَها إلى بيتِها بنفسِهِ بعدَ أنْ رحَلَ أبناؤها عبد العال والهلال وجلال وتركوها تعودُ بمفردِها، وبالفعل أوصلَها أخوها إلى بابِ الدوّار ولاحظَ تواجدَ أبنائِها بالدوار، طلبتْ منهُ أن يدخلَ ليستريحَ قليلًا فاليومُ كان شاقًّا عليه، حاول أن يرفضَ لكنّها تمسّكتْ بطلبِها فوافقَ ودلفَ إلى الداخلِ وعندما جلسَ بجانبِها بساحةِ الدوّار وجدَهَا شاردةَ الزهنِ صامتةً فدنا منها قليلًا وأردَفَ قائلًا:

- إيه يا صبريّة مالِك؟ حالِك مش حالِك ليه في إيه؟

بدأت في البكاء وتلعثمتْ قليلًا ثم استطاعتْ أن تستجمِعَ قواها وتتحدّثَ قائلةً:

- البت سافرت و قطعت فيا.. أول مرة أبعد عنيها.. دا أنا الوحيدة اللي كنت ليها.. حاسة إني مش راح أشوفها تاني.

ابتسم العمدةُ وهو يربتُ على يديها برفقٍ ويقول:

- حفيظة خلاص يا صبرية.. اتجوزت و اتسترت.. و دنيتها اتغيرت.. عقبال ما تغيري دنيتك.. و تعرفي طريقك وسكتك.

صمتَ لحظاتٍ لينظرَ حولَهُ ثم عاوَدَها بسؤالِها:

- كلمتي عويضـــة في الموضـــوع إياه؟ ما خلاص ماعدش في حاجة حداه.. الفقر ماسك فيه بسنانه.. و عشش في مكانه.. واللعنة بنارها ماسكاه.

دنتْ منهُ قليلًا وقالتْ له هامسةً:

- لأ خايفة.. نِفسي بس مش عارفة.. أنا بجد اتخنقت.. وبصراحة ما صدّقت.. بس أقولها إزاي.

- خلي القوالة عليا.. دي القوالة عادة فيا.

وفي تلك اللحظة تفاجأ الاثنان بنزولِ عويضة من على دَرَج الدوار قادمًا ناحيتهما يتعكَّزُ بيدِهِ اليســرى الكاملةِ على عصا من العاج كانت لوالدِهِ ونصفُ يديه اليمنى الباقي تم ستره بالشاش القطني، باهتُ البشرةِ بشكلٍ ملحوظ واحتلت النحافةُ جســـدهُ، عينُه اليمنى جاحظةٌ وعينه اليسرى فارغةٌ خلف الشاش القطني، دنا منهما

غير مبـالٍ بمـا فيـه نـاظرًا لهمـا في حـدة، فوقف الاثنـان وهما ينظران له بكُرهٍ بيّن وكان العمدةُ ســـابقًا بالكلام ولكن بسخرية قال:

- أهو جيه.. أهلًا يا ســبع البرومبة.. أهلًا يا راجل يا زومبة.. مش مكسوف من نفسك.. مش مكسوف من فقرك .. ولا لعنتك اللي معششة جنبك!

ردَّ عويضـة غير مبالٍ بسخريتِهِ قائلًا:

- قدرنا نعمل إيه.. نصـيبنا وقسـمتنـا.. الكلّ راح ومش بـاقي غير الأرض بـالدوار اللي حيلتنـا.. حكمة ربّك قَدَر مكتوب.. ربنا بيشيل مننا ذنوب.

يعلو صوت العمدة غاضبًا:

- وربنا برضـه يرضى بحال أختي.. أخت العمدة بنت العمودية بنت الحسب والنسب.. صـاحبة الأطيان.. بنت الأعيان.. تعيش على حبة قوطة و جبنة.

- دا اللي حيلتنا.. والحمد لله.

تقدَّمَ العمدة منه قليلًا وحاولت صـــبريّة أن تجذبَهُ إلى الخلفِ محاولةً تهدِئتَهُ لكنه ردَّ قائلًا:

- بتقول اللي حيلتنـا.. ماينفعنيش.. و لا أختي حاتقدر معاك تعيش.

نظر له عويضة مستغربًا فسأله:

- قصدك أيه ؟

اقترب من العمـدة في تحـدٍ ملحوظٍ من عينيـه ووقف عويضة منتصبًا أمامه ولكن العمدة فاجأه بقولِه:

- طلّقها يا عويضة.

نظر له عويضـــة في تعجُّبٍ ثُمَّ ذهبت عيناه لصـــبريّة التي وجدها تتحامى في ظهر أخيها فعاد مجاوبًا طلبه.

- أطلقها؟!..لأ..........لأ.

قال له العمدة مهدّدًا:

- طلقها يا عويضـــة.. أحســـن أنت خابر أنا ممكن أعمل إيـه.. أنـا العمـدة.. والعمدة يعني كلمـة الحكومة و الإيد

الواصـــلة لكل شــــيء في البلد دي.. و أنت خلاص ما بقيتش تســـتحمل البهدلَـة.. بهدمتك المهلهلة.. وحيلك المقصوص.. و عودك اللي واكله السوس.

ردَّ عويضة ناظرًا لزوجتِهِ صبريّة:

- أسمعها منها الأول.. قابلة اللي بيقوله أخوكِ العمدة.. يا بنت... العمدة؟

تقدّمت صـــبرية قليلًا في ثبات ووقفت بجوار أخيها تنظرُ في عين عويضــــة في ثقةٍ يعلم هو ما نتيجتها ثم أردفت قائلةً:

- أيوه.. قابلة.. بقالي زمن زهقانة.. قرفانة.. من الحال اللي لا يســـر عدو ولا حبيب.. من حالك الفقري الكئيب.. أيوه قابلة.. الراجل يعني ظهر.. حمى.. أمان.. مال.. مش خوف.. ومرض.. وشـــحاتة.. وسؤال.

نظر لها عويضــــة منكســـرًا كأنه كان يعرف الإجابة ولكن لم يتوقع سماعَها.

- أيوه؟ أيوه يا صبرية؟! دي كلمة تقوليها ليا.. نسيتي خيري عليكِ.. العز والدهب اللي مالي أيديكِ.. الحب والصون العِشرة ليكِ ولعيالك والحنية اللي خارجة مني صافية.. طول عمرك وإنتِ قلبك حجر وجبروتِك طاغي عليكِ وبتتنفسي الغرور يوماتي وعينيكِ نظرتها قاسية.

ثُمَّ صمتَ وهو ينظرُ لها باشمئزازٍ وغضبٍ وأردفَ قائلًا:

- مامنوش عازة الكلام.. طبع الكلب غالب.. حتى لو علقوا في ديله قالب.. روحي و أنت طالق بالتلاتة.. غوري.. غوري من دواري.. مش عايز أشوف خِلقِتِك قدامي.. غوري.

ما أنْ قالَ تلك الجملة حتى تشقَّقَت جميعُ جدارن الدوار وأرضيته والسقف ليخرج منها حشرات الأرض من نملٍ وعناكبَ وسوسٍ وديدان تزحف وتنتشر في كل مكان، جعلت الجميع يهرولون صارخين خائفين يتقافزون وهم يلتفتون، خرجوا جميعًا ولم يتبقَّ إلا عويضة واقفًا منتصبًا متسمرًا مكانَهُ ينظُرُ إلى ما حدثَ

حوله مذهولًا، جرت أسـرابُ الحشـرات حوله لكنها لم تعبُر دائرةً فارغةً يقفُ هو في منتصـــفها كأنه وضـــع طبقـةً عـازلـةً نـافرةً من حولِـه، ثم نظر إلى الأمـام يتابعُ هرولة زوجتِهِ وأخيها وأولاده ومن تبقى من خدمِ البيت خارج الدوار في صمتٍ ويبتسمُ ابتسامة باهتة.

****

لم تمرّ تِلكَ الواقعة مرورَ الكرامِ بل بالعكس كانت لها صدى صرخة ناقة سيدنا صالح، انتشرت بين عامة الناس بسرعة ونبتتْ من أحاديثِهم شجرةٌ لخيالاتٍ زادت بشاعتُها مع الحدث أضعافًا وأضعافًا وأصبح دوار عويضة والأرض التي تحيط به مخيفًا للكبيرِ قبل الصغير لا تخطُّها قدمُ بشريّ، منطقةٌ سوداء مخيفة يسكُنُها رجلٌ ملعونٌ أو ساحرٌ رجيم، تكاثرتْ الشائعاتُ حول عويضة كأنها عشٌ كبيرٌ لخلايا نحلٍ أسود، وهو بريءٌ منها ولكن من يصدِّق، فالصدقُ في هذا الزمان يوجد في آخر طريق الكذب وللأسف من أراد الصدق وسلك هذا الطريق يأنسه ويريح وساوسه فلا يكمله موهومًا بالراحة، وما أدراك عن الراحة من الوساوس.

وبعيدًا عن تلك المنطقة السوداء كان تقاوي داخل منزله الهش يُحضر لانتقامه بتجهيزِ ما يلزم من ذلك لاستقبال ضيفه الذي أشرف على خطوات من عتبة داره، فسمع طرق الباب وشعر كأنها دقات طبول مَلّكية تزُفّ داخل أذنه فرحًا، فنهض مسرعًا وتقدم ليفتح الباب ليتأكّد أنه ضيفه المنتظر هلال الذي كان ينظرُ له وهو يتثاءب فهَمَّ عليه تقاوي وجذبَه من يده إلى الداخل قائلًا:

- إنت لسه حاتتاوب يا خوم نوم.. ادخل يلا ورانا كلام بالكوم.

دخل هلال مسحوبًا للداخل فأعاقته طاولةٌ صغيرةٌ أمامه فتعرقل فيها وفقد توازنه ووقع بجانبها مُحدِثًا سقوط عدة أشياء من حوله فالتفت وهو مفترش الأرض غاضبٌ لتقاوي الذي تعجب من هذا السقوط المخزي ناظرًا له بملامح تشوبها المتعة مما حدث، وبسرعة أدرك ذلك فحاول أن يوحي إلى هلال بتأسفه مادًّا له يديه، فوجد هلال رافضًا له محاولًا أن يلملِمَ نفسه ناظرًا بعيون قافزة بالغضب لتقاوي ثم تجاهل يده الممدودة له ووقف منتصبًا يهندم ملبسه في صرامةٍ وغضبٍ حتى زفرَ غاضبًا فقال:

- إنت نسيت نفسك ولا إيه؟ إيه الهبل اللي إنت عملته ده؟ أنا أتجر زي البهيمة.. ليييه؟ شكلك عايز علقة من عُلق زمان كده.

حاول تقاوي أن يمتصَّ غضبَه وقلل من حدّتِهِ متأسفًا:

- يا سيدي أنا آسف ماكانش قصدي.. وأبوس راسك لو عايز.. بس تبقى مَرّضي.

ابتعد عنه هلال ناظرًا له بصرامةٍ متجهًا صوب الباب ليجد تقاوي يربت على كتفه قائلًا:

- عايز تمشي وتسيب الصنف الجديد لمين؟ دا صنف بتاع ولاد الأكابر المأصّلين.

توقف هلال عند تلك الكلمات التي داعبت أذنه وعقله فقلّتْ درجةُ حرارةِ غضبهِ تدريجيًا والتفتَ محاولًا تصنّع الحدّة في قوله:

- صنف عِدل ولا زيك مالوش لازمة؟

- دا عِدل وأبو العِدل ويقول للعِدل اتعِدل.

قالها تقاوي مبتسمًا محاولًا استرضاء هلال قليلًا، فبادله هلال الابتسامة، فجذبه تقاوي إلى الداخل مُرحّبًا به وأجلسه على أريكتهما الخاصة وتركه وذهب ناحية فراشه ومدّ يده تحت وسادته الصفراء لتخرج ثانيةً من تحتها ممسكة بعلبة حمراء مثل علب الصاغة، علبةٌ صغيرةٌ تكفي لوضع خاتم فقط، تقدّم ناحية هلال ممسكًا

بتلك العلبة وهو يراقب نظرات التعجب والاستغراب على هلال الذي سبقه بسؤاله ساخرًا:

- هو الصنف اللي انت جايبه طلب معاك تخطبني؟ مش كنت قولتلي قبل ما أجي عشان أستعد إنك حاتتقدملي؟

- خفت تقوللي لأه.. قولت أعملهالك مفاجأة.

كان هذا رد تقاوي ردًا على سخرية هلال وما أن دنا منه وجلس أمامه ثم نظر إلى هلال ليشبع رغبته بالانتصار وهو يرى نظرات التطفل الشَره المفضوح من عيني هلال، وبغرور لاحظه هلال في ملامح تقاوي فتح العلبة التي بيديه لتظهر حبّتان في حجم اللؤلؤ البحريني لونُهُما أبيضٌ ناصع، وتحت مراقبة هلال لما يفعل مد له تقاوي بالعلبة ليمسكها هلال في تركيز ثم أردف تقاوي قائلًا وهو يعود بظهره للخلف في ثقة:

- دا صنف ولاد الأكابر حاجة مش بتاعت أي حد.. بتخليك في عالم تاني مش معانا على الأرض.

ظهرت على هلال ملامح الانبهار وزادت سرعةُ دقاتِ قلبهِ فارتفع صــوتُ أنفاسِــه اســتعدادًا لافتراســهما، وبتسرع حاول أن يمسكَ بإحداهما من العلبة لكن باغته تقاوي وقبضَ على يدهِ بقوةٍ فرفع هلال عينه لتقاوي مستغربًا وقال متسائلًا:

- دا ايه دا بقى إن شـــاء الله.. أنت فاكر نفســك حاتفرجهالي وتاخدها.. ليه هي شــبكة أختك.. ولا عقلك منك تاه.. حاخد واحدة أجربها لو عجبتني حاخليك تجيب تاني منها.. ولا فاكر نفسك من ولاد الأكابر.

نظر له تقاوي في صـمتٍ ثم ترك يده وانفجَرَ ضــاحكًا مما جعَلَ هلال يشــعرُ بالرّيْبة والخجل، وعندما أنهى تقاوي أردف ساخرًا:

- يا ابن الأكابر دي مش بتتاخد لوحدها كده.. هما بيتاخدوا كده مع بعض واحدة تطحن وتتشـد سـطر والتانية تتخلط ببودرة دهب مطحون وتتشـــد بعدها بعشــر دقائق وصــباح الخيال.. واحدة تفتحلك باب

العالم في الحال.. وتقولك إتفضل والتانية تخليك ترمح فيه ولا أحسن خيال.

- يا ابن اللذين ولاد الحلال.. بودرة دهب في الصنف.. لا فعلًا صنف لولاد الأكابر.

قالها هلال وعيناه تلمعُ وهو ينظُرُ إلى العلبة التي بين يديه، فبادره تقاوي بقوله:

- دي حاجة تجرّبها وتقوللي رأيك فيها، إيه رأيك يكون ده المشروع اللي يخلينا في الدنيا دي نركبها ونعديها.

ظهرتْ على وجه هلال علامات الجهل وعدم الفهم فرفع حاجبه متسائلًا:

- وضّح يا ابن الأبالسة قصدك إيه؟

- نجيب شحنة صغيرة على قدنا من الصنف ده ونكون أول ناس بتوزعه في السوق.. هاه معانا ولا إيه؟

- معاك طبعًا بس ازاي؟

وقف تقاوي وتحرك بثباتٍ خطوتيْن ثم التفتَ قائلًا:

- أنا عليا استلام البضاعة وتوزيعها وأنت عليك السيولة.

- أنا السيولة؟!

قالها هلال ساخرًا ثمَّ جلس متربعًا شارِدًا حزينًا في ركنٍ من أركان الغرفة فلاحقه تقاوي بالرّد:

- آه أنت.. وهو أنت قُليل.. دا انت حفيد العمدة الكبير وابن الأكابر ودي حاجة عارفها أصغر عيّل.. أنا سمعت زي باقي أهالي البلد إنكم خرجتوا جري من الدوار.. هربانين من لعنة أبوكم من غير ماتاخدوا منه حتى زرار.. ووالدتك الحجة صبرية أخت العمدة وخليفة العمودية أكيد سايبة شيء وشويات من دهب أشكال وألوان.. لو اتاخد دلوقتي كله حيترمى على لعنة والدك مش أكتر.

نظر هلال له بتنمّر وقال:

- يا ابن الأبالسة فكرة شياطين بس تفتكر حاقدر.

- وحتخاف من إيه؟ لعنة أبوك لو حقيقية مش حتخسر أكتر ما أنت كل يوم بتخسر.

- عندك حق.

- إمتى نقوم بالعملية دي؟

وقف أمامه تقاوي ومد يده ليجذبَه منها قائلًا:

- دلوقتي.. هو ده الوقت المناسب.. بس استنى حاسب.. لازم تجرب الصنف الجديد قبل ما نتحرك.. عشان قلبك يتشجع ونخلص الليلة وانت مش قلقان من حاجة ويا سلام بقى يا حظك.. بالمرة واحنا هناك نطحن حتة دهب ونكمل بيها الدماغ إيه رأيك؟

ما أن انتهى تقاوي من حديثه حتى وجد هلال يُخرِجُ إحدى الحبتين ويضربُها بملعقةٍ كانت على الطاولة بجانبه والأخرى ما زالت بالعلبة، حتى تأكد من تحويلها لذرات ناعمة ورسم بها خطًا على الطاولة

وانحني برأســه عليها ليسـتنشـقَها كاملةً بإحدى فتحات أنفهِ ليعود ناصبًا ظهره مرةً أخرى وهو جاحظُ العينين وترتســـمُ على وجهه علاماتُ البهجة، كل هذا وتقاوي يتابعه بشغفٍ واستمتاع غريب فوجد هلال قائمًا وأشار له بأن يتبعه وبالفعل تقدَّم هلال تقاوي متجهًا إلى منزله القاطن به والده حاليًا وحيدًا، ولكنّه اتجه بهدفٍ مســبق وخلفه تقاوي يبتسم كلما اقتربا من هدفهما.

وبالفعل وبعد أن أوهم تقاوي هلال بأنه ليس على دراية كـافيـةٍ بتوزيع غرف الـدوار فزوده هلال بـالمعلومـات وتقســيم الدوار بالكامل فأشـــار تقاوي على هلال أن تسلُّقَ هذه الشجرة هو أفضل الطرق المؤدية إلى غرفة والده فهلال لا يعلم أنه آخرُ من تسلقها من فترةٍ ليست ببعيدةٍ ونتج عن تلك الزيارةِ كارثة.

وبـالفعل يصـــعدُ الاثنـان ويراقبان الغرفةَ ليجدا أن لا يظهر عليهـا أي من علامـات الاســتخدام والحياة بها، وأكثر الظن أن عويضـــة لم يدخلها منذ أن غادر هلال وأهل البيت الدوار، هذا شـجعهم كثيرًا لما أتيا من أجله فتح هلالُ بابَ الشـــرفة ودخلا الغرفة، اتجه هلال إلى

خِزانة الملابس مباشرةً، فهو يعرف أين تخفي صبرية والدته صندوق ذهبها، وبالفعل وجده وأخرجه أمام ذهول تقاوي الذي كان يقفُ على باب الغرفة يراقب من بعيد، ولكنه شعر أنه يفقد توازنَهُ وكاد الصندوقُ يقع من يديهِ إلا أن تقاوي اقترب سريعًا والتقط الصندوق بخفةٍ دونَ أن يرتطمَ بالأرض أو يحدثَ صوتًا يفضحُهُما.

لكن لم تكن تلك كل مشاكل هلال، إذ شعرَ بألمٍ شديدٍ في صدِره وظلت أنفاسُه تزدادُ سرعةً فوقع جاثيًا على ركبتيه محاولًا الصمود لكنه لم يستطع، حاول رفع عينيه في اتجاه تقاوي طالبًا المساعدة ولكن لم تسعفهُ عضلةُ لسانه في نطق ما يريد وهو يرى تقاوي مشغولًا بمختلِف أحجامِ وأشكال الذهب البراق، أعقبتْ تلك النظرةُ بصقةٌ كبيرةٌ من الدماءِ من فمه ليسقطَ ويرتطمَ وجهُه بجانبِها ثم تنسالُ الدماءُ بغزارةٍ من فمه وهو جاحظ العينين يهتزّ وينتفضُ بسرعة دقات قلبه، لاحظ بعينيه الغائمتينِ تقاوي يقتربُ منه حاضنًا صندوق والدتِه مبتسمًا قائلًا له:

- الصنف الجديد يا ابن الأكابر لأولاد الأكابر الأوساخ اللي زيك مش كده برضـــه.. صـــنف بيزود دقات القلب لحدماينفجر بيســتخدموه ولاد الأكابر بره لو عايزين ينتحروا.. مش عايز أكدب عليك أنا صرفت اللي كنت مخبيه كله عشـــان أجيبهولك.. هو أنا ليا أعز منك والحمد لله ربنا عوضــني حاســيب جنبك كام حتة دهب كده والصندوق حاسيبهولك.. عشـان النـاس تعرف ابن الأكـابر اللي جـه يســرق أهلـه.. وأبوه الملعون لمــا عرف بلعنتــه قتلــه.. تؤمرنـي بحاجة تانية يا ابن الأكابر.. أشوفك في النار.. عِشت مُدمن ومُت كافر.

****

كان عويضـــــة ممدَّدًا على أريكتِهِ المفضــــلةِ بإحدى جوانب بهو الدوار في سُـــبات لم يدُم طويلًا، فلقد أرَّق نومَه صوتُ ضربات ضعيفةٍ تضربُ صدره بشكلٍ شبه ثابت وشعور ببرودة تتملّكُ منطقة تلك الضربات دون أن يفتحَ عينيه، مرر يده على صدره في موضع شعوره بتلك الضربات ليجد صدره مبللًا بسائلٍ لزج، ففتح عينيه ليسقطَ من على الأريكة فزعًا فصدرُهُ ملطخٌ بالدماء، وما أن أدركَ ما به حتى سمع صوت ضربةٍ أخرى تســـقط على الأريكة فاقترب منها أكثر ليجد أن قطرات الدم تســـقطُ من أعلى فيرفع عينيه لأعلى دون أن يشعر ليجدَ السقف بالأعلى مصابًا ببقعةٍ من الدماء امتلأت من الداخل واكتفت بما أخذته من مســـاحة في السقف لتتساقط على صدر عويضة النائم في فراشٍ كأنها ســحابةٌ حمراء معلقةٌ بالسـقف وشـقوق الجدار تبتعدُ عنها هربًا.

شــعر عويضـــة بأنَّ هناك شــيءٌ في الطابق العلوي هو السـبب في اتســاع تلك الســحابة الحمراء في السـقف، فحاول أن يلملمَ نفسَـــهُ ويمســـكَ بعكّازه واتجه ناحية

الدرج ليصعدَ إلى أعلى مارًّا بغرف أولاده الأربعة حتى وصل لغرفة نومه ليجد باب غرفته مفتوحًا، ولكن عندما دنا من عتبة بابه ثبت مكانه وتشبثتْ أقدامُهُ بالأرض وسقط من يده عكازُه ليرتطمَ بالأرض وتهاوت السبحةُ قليلًا من يده من هول ما رأى، بدأتْ قدماه تتحركُ قليلًا كأن الثلج الذي كان عليها ينصهر، خطواتٌ غير متزنةٍ وصوتُ أنينٍ محتجَزٍ يتسرب من بين شفتيه، دموعٌ تبللُ شقوقَ وجهِهِ وهو يتقدمُ بخطواتٍ محسوسةٍ فتنغمسُ قدماه في بحيرةٍ من الدماء في منتصف الغرفة مركزها جسد هلال الراقد على الأرض غارقًا في دمه، كان منبع هذا الدم الهائل هو فمه المنفرجِ عن آخره مع جحوظ عينيه المفرط، اقترب عويضة منه ولمس يدَهُ فارتجف من شدةِ برودتِها وزادت برودتُها من بكاءه، وفي تلك اللحظة أفرج عن الأنين المحتجزِ داخل فمه وصرخ صرخة مدوية قائلًا:

- وآآآآآآآه يا الله.. وآآآآآآه يا الله!

وفي منطقةٍ بعيدةٍ جدًا عن منزل عويضة الملعون على إحدى الشواطئ النائية قبل أذانِ الفجر بساعةٍ واحدةٍ حاول فيها الموجُ تغطيةَ أكبر مساحة من الرمالِ الباردة لتدفئتِها ولكنه للأسف أشد منها برودةً، وهذا يظهرُ على كل من يصعدُ السفينةَ الصغيرةَ الراسيةَ على هذا الشاطئ تُحملُ شحنَتَها من الأناس البؤساء والتعساء الذين يأملون في حلم البداية الجديدة بمكانٍ جديدٍ بمجتمعٍ جديدٍ يراعي فيه إنسانيتَهم، أناس قادمون من بقاعٍ مختلفةٍ من جنسياتٍ مختلفةٍ بطباعٍ مختلفةٍ ولكنهم يشتركون في حلمِهم الواحد، الحلمُ الذي باعهُ لهم تجار الأحلام السريعة وكان من ضمنهم العجيزي بيه باعه لعبد العال الذي يقف بدوره في طابورٍ طويل أوشك على الانتهاء منه وهو يحتضنُ تحت إبطه الأيسر فرحة وحاملًا على كتفه الأيمن الكثير من الحقائب التي كانت السبب في توقفهم على عتبة السفينة من أحد مساعدي قبطان تلك الرحلة حارس عتبة العبور أمرًا في حدة وغضب:

- هي شنطة واحدة لأي واحد أو واحدة.. دي تعليمات القبطان عثمان ومافيش بعدها كلام.

لقد اشــــترط قبطانُ تلك الرحلة أن يحملَ كل مســــافرٍ حقيبةً واحدةً فقط فلا يريد أن يخاطر بوزن تلك السفينة المتهالكة في عرض البحر ويفقدُ عمره بســبب جشــع أحد الركاب في أن يأخذَ معه كل ما يريده، ولقد أدرك عبد العال ما يريد هذا الرجل فنظرَ لفرحة مائلًا برأسه خجلًا وخضع في اختياره لحقيبتين فقط، وفي أثناء ذلك مر من جانبهما رجلٌ يحمل على كتيفيه ابنته التي يقترب عمرُها من خمسة أعوام وعلى يده الأخرى ابنه الذي لم يتعد العامين، وخلفه زوجتُه تُمســكُ بتلاليبِ جلبابِهِ من الظهرِ وتجرُّ بيديها حقيبتين من القماش وتصــعدُ خلفهم الســفينةُ، وما أن مرت حتى ألقى عبد العال بحقيبتين من حقائبه بعيدًا وعاد ليحملَ ما تبقى معه فأتاح لهما حارسُ هذا المعبرِ ليعبروا داخل غرفةٍ جانبيةٍ في وســط الســفينة ليجدوا المكان مُكتظًا بالناس الجالســين على الأرض جاعلين من حقائهم مقاعدَ ووسائدَ لمن يسطيعُ أن ينام.

دار عبد العال بنظره يمينًا ويسارًا حتى يجدَ مكانًا يتسعُ لهما لكي تجلسَ به فرحة وبالفعل وجده بالقرب من أحدِ أطواق النجاة الجانبية المعلقة على الجدار فأمسك يديها في حنان دافئ وأشار بيدهِ الأخرى إلى المكان الذي وجدهُ لها فأسرعتْ وتقدمتْ إليه بعدة خطواتٍ وجلست محاولة إفساح حيّز له حتى يجاورها بالجلوس ويستريح قليلًا، وما أن جلس حتى أغلق حارس المعبر البابَ عليهم وسمعوا صوته يصيح لقبطان تلك السفينة بأن العدد اكتمل، وما أن مرت عدة دقائق قليلة حتى انطلق صوتُ محرك المركب لتبدأ رحلتهم إلى حلمهم المجهول ومع هذا الصوت فزعت فرحة فدنت من عبد العال كثيرًا ليحتضنها هو بدوره محاولًا طمأنتها فغفت هي بدورها في حضنه دون أي مقدمات، ولم تستيقظ إلا على صوت الرجل الذي مر بجانبهما وهما على عتبة السفينة هو وأسرته يقف كأنه يحاول جذب انتباه الجميع بصوته الأجش وعينيه اللامعتين ناظرًا لأسرته الصغيرة قائلًا بصوت عالٍ:

ماتصحيش العيال ولبسيهم تقيل

خدي شال أبويا عليهم غطيهم
وأنا على قد ما أقدر حاشيل
واللي حاسيبه سامحيني وانسيهم
للعيلين حاجيب لكل واحد لعبته
أهي حاجة تصبره وتفكره بإنه عيل
مش مولود راجل شايل هَم ضحكته
وإن الضحكة لِيِه تمنها مش قُليّل
ومش حاقدر أجيب غير طرحتك
اللي كنتي لابساها يوم الصباحية
بحبها عليكِ بتزوّد فيا محبتك
وهي عليكِ بترجعك أحلى صبية
وحاخلي اللي فاضل في الشنطة
لكام رغيف وحتتين جبنة بيضة
لجل العيال ما تتقوّى بأي لقمة
معدتهم بقت فاضية وعتمة سودا
وماتخافيش من الموت في البحر الكبير
هنا أو هناك مش فاضل غيره وبس
عارف إنه ياما قبلي ماتوا فيه كتير
طب حنعمل إيه في يأس بيقتل يأس
سامحيني دا اللي قدرت أخدهم
أصل المراكبي مشدد علينا في الشيل
وانا خايف عليكم من المجهول

واللي عارفينه منه يدوب برد الليل
ماتصحيش العيال ولبسيهم تقيل

****

انتهت أيامُ العزاء الثلاثة بعد موت هلال، وما زال عويضة حبيس دوارهِ لم يستطع أن يحضر الجنازة ولا العزاء وذلك لرفض العمدة وزوجته صبرية والدكتور جلال معللين ذلك بغضبٍ أنهم قد اكتفوا من لعنتِهِ عليهم وطالبوه بأن يُخرج جثّته من الدوار ويترُكُها أمام عتبةِ الباب ولا يقترب أكثر من ذلك، وهذا بعد أن رفضَ الجميعُ أن يدخلَ هذا الدوار الملعونِ ويخاطرُ بحياتِه، ورغمَ أن عويضة بيد واحدة لكنه تحاملَ على نفسه وشعرَ بقوةً غريبة جعلته يستطيعُ أن يحملَ جثةَ ولدِهِ هلال على كتفِه ويُخرجُه خارج الدوار ويضعُه أمام عتبتِه، ولم يقتربْ أحدٌ من هلال حتى تأكدوا من عودتهِ للدوار واختفائه خلفَ بابِه المغلق.

وكان أثرُ ذلك على عويضــة أكثرَ ظُلمةً فيما مرَّ عليه، وكل ما كان يفعله خلال حبسِـــهِ في الدوار هو أنه كان يجلسُ في غرفة هلال على فراشـــه راقدًا ســـاكنًا لا تتحركُ فيه عضـــلةٌ إلا اثنتين، جفنا عينيهِ اللذين لم تتوقّفا عن البكاء وشـــفتاه اللاتين لم تتوقفا عن الحمد، وازدادت شـــروخُ البيت أمامَ صـــرخاتِ الأخشـــابِ والحوائط من نخور الحشـــرات بها، الحشـــرات التي اعتاد عويضـــة على وجودها حولَه دون أن تقتربَ منهُ أو تلمسَـــهُ، لم تستطع أيةُ حشـرةٍ أن تعبرَ الهالةَ الخفيّة التي تحيطُ من حولَه دون أن تتركَه يشـرُدُ في ذكرياتهِ مع هلال ولده أثناء طفولته، فلقد كان هو مصـــدر الابتســـامة والبهجة بالبيت كانت تشـــعّ منه الحيويةُ والمرحُ، وكان عويضـــة يرى فيه نبضَ الحياة عندما يدقّ اليأسُ بابَهُ، فكان هو العلاج للحزن، حتى حدثت له تلك الانتكاسة بسبب صدمته في الفساد الإداري الذي احتل الجامعة فانطفأت شـــمس هلال بالدوار حتى اختفت تمامًا.

ولكن لم يقطع على عويضـــة البكاء على الأطلال إلا صـــوت طرقٍ واضـــحٍ فصـــمتَ عويضـــة وتوقّفَ عن

البكاءِ والتسبيح حتى يتأكد من صحة ما سمعه فتأكد أن مصدرَ الطرق من الأسفل فأمسك بعصاه وجمع بواقي قواه وقام من جلســـته ونزل الدَرَج والطرقُ يزدادُ قوةً ليجدَ أنـه أتي من بـاب الدوار وهذا ما زاد من دهشـــةِ عويضـــة فلم يطرُق أحدٌ هذا الباب من يوم هروب أهل البيــت منــه وفرارهم إلى الخــارج يوم زفــاف ابنتــه حفيظة، زادتْ مشاعرُ الشكِّ والفضول لمعرفة الطارق فحاول أن يســرعَ من خطواته أكثرَ فتحامل على نفســه بشــكلٍ أقوى حتى وصـــل إلى باب الدوار وفتحه ليجد ابنته حفيظة أو أشــباه ابنته حفيظة، إنها تقف أمامه وقد ازدادت نحافتُها وانطفأت إشـــراقتُها وذبلَت الحياة فيها وعينـاها غارقةٌ في هالتها الســـوداء القاتمة تنظرُ بهما إليه ولا تكادُ تراه، انتصـــب عويضـــة من الدهشـــة، لا توجدُ خليةٌ فيه تصدق أن هذه ابنته حتى تفاجأ باندفاعها في حضنِهِ وهي تقول صارخةً:

- قتلته.. قتلته

وانفجرت باكيةً على صــدره فحضــنها بكلتا يديه أو ما تبقى منهما وضـمَّها إليه حتى يُشـعِرَهَا بالأمان ويشـعُرَ

هو بالألفة، ورغم صعوبةِ الموقف حاول عويضة أن يستوعب ما يحدث فضمَّها وأدخلها الدوار، أمّا هي فلم تلاحظ ما أصبح الدوار عليه من كآبة وظُلمَة وشقوق بالحوائط والجدران والحشرات التي احتلته، فلقد كانت هائمةً في عالمٍ آخر غير متزنةٍ وأجلسها بجوارِهِ على الأريكةِ وأمسكَ يديْها وضمهما بين يديه قائلًا في حزن:

- مالك يا حفيظة يا بنتي؟ مالك بقيتي مش إنتي؟ ومين ده اللي قتلتيه؟

حاولتْ حفيظة أن تتمالَكَ أعصابَها وتُهدّئ من رهبتِها وبكائِها، وما كادت أنفاسها تهدأ حتى مالت برأسها لأسفل فوضعتْها على قدمِ والدِها عويضة كأنها وسادتها لترقدَ بجانبِهِ وهي تضمُّ ساقيْها في حضن بطنها ويداها مضمومتان تحت خديْها، فمد عويضة يده ليمسحَ دموعها الغارقة على خدَّها المبلّل بدموعٍ مكحّلة والخوفُ يتملّكه، وهو يخاطب نفسه: "من هذه؟ هذه ليست ابنتي حفيظة، ماذا حدث لها؟ ماذا فعلوا بابنتي؟" حتى تفاجأ بقولها وهي شاردةٌ غير ناظرةٍ له:

- ياريتني سمعت كلامك يابا الحاج ولا عصيته.. والراجل اللي استنيته.. وجريت وراه بأحلامي.. وهروبي من الفقر والسجن اللي عشش في مكاني.. خلاني جريت عليه و قولت دلوقيت لاقيته.. لكن طلع ندل.. جبان.. ما يستحقش تسميه إنسان ولا حيوان.. وراني الذل و القهر.. و جسمي من ضرب متعلم في كل مكان.. ياريتني ما سمعت كلام خالي وأمي.. كلامهم كان سبب تعاستي وهمي.

ورغم حزن عويضة الشديد المسيطر عليه، حاول تهدئتَهَا فمسح على جبينها بحنان ثم أردف قائلًا:

- إيه اللي حصل يا حفيظة قلقتيني عليكِ؟

- طول الفرح يابا وهو جنبي وعينيه بتبصلي بشكل غريب.. كنت فاكرة إنه من جمالي فرحان بيا ودي نظرة حبيب.. حتى مَسْكِتُه لإيدي في الزفة حسيته بيعصرها بين دراعه.. كأن حد قاله إني ممكن أهرب منه قلت دا عريس ويمكن دا العادي بتاعه.. لكن اللي شوفته في عينيه وإحنا في طريقنا لبيته كان مخيف فعلًا.. حتى لمعة عينه تحسه فيها شر

ماشفتوش في حد أبدًا.. ولما وصلنا البيت شالني بإيديه الاتنين وابتسامته ماشوفتش فيها غير لمعة نابين ساعتها حسيتها ابتسامة إبليس.. أول ما قفل الباب رماني على الأرض.. وقلع جاكت البدلة وخلع الحزام من البنطلون.. وقالي "عشان يا عروسة ناخد على بعض.. لازم يتلون جسمك بحزامي ألف لون".. نزل عليا بالحزام بقوة وكل ما يسمع صرختي يضرب أكتر بقوة.. وفستاني اتقطع وهو لسه عليا ومعاه جلدي اتقطع من جوه.. أغمى عليا ماظنش كتير لاقيته بيحاول ياخد حقوق الشرعية مني.. قولتله لأ ارحمني لأ سيبني سيب جسمي.. كفاية اللي عملته فيا.

حاول كتير معايا ورفضت.. جريت في البيت هربت.. لكن كل البيبان مقفولة دخلت أقرب حمام وقفلت.. قفلت على نفسي الباب كنت بموت من الخوف وأنا سمعاه بينده عليا من ورا الباب ومش عايز يبطل خبط ودق.. وقالي "مش أنا يا عروسة اللي يتقالي لأ".. قعدت على الأرض وعينيا مابطلتش بُكى.. سكت وبِعد عني ماكنتش عارفة إيه

اللي بيحصل بقى.. مافيش ساعتين وسمعت صوت ناس برة.. وهو من بينهم صـــوته العريض المخيف واضـــح بيزعق ويقول "العروســـة فاكرة نفســـها حرة".. ومـافيش ثـانتين ولاقيت البـاب بيقع عليـا.. وحوالي ٤ أو ٥ بيشـــدوني من رجليا وإيديا.. وهو واقف وراهم وبيضـحك باسـتفزاز قتلني.. شــالوني وأنا بترجاه يخليهم يسيبوني.. لكن عينيهم كانت زيه بتاكل في جســـمي.. راموني على الســـرير قدامه وثبتوني بـإيديهم.. اللي ماســـك إيدي واللي شــادد رجلي.. وهو بيبصـــلهم كأنه بيشـكرهم.. قرب مني واغتصبني قدامهم يابا.. اغتصبني قدامهم يابا.

- ماحسيتش بنفسي غير وهو نايم جنبي.. ساتر نفسه بالغطا ومش ســـاترني.. قومت بالعافية وماعرفش كنت رايحة فين.. الغل اللي فيا كان عاميني ونسيت حتى أنا مين.. روحت المطبخ ورجعت الأوضـــة وفي إيدي سكينة.. وبكل اللي فضل من قوتي نزلت عليه.. أنا بصـــرخ وايدي بتطعن فيه.. غيبت كام دقيقة.. وفُقْت لما لقيت السكينة بتغرس في السرير..

وهو غارق في لحمه ودمه وأنا متلونة بيه.. السكينة وقعت مني ووقعت جنبها مابقاش فيا حيل.. ولما استوعبت اللي حصل لبست أي لبس ليا.. وجريت هربت في سواد الليل واستخبيت في كذا بلد.. لكن ماتسترتش والبوليس مش سايبني.. بيجري ورايا فمالقيتش غير دوارك يابا هو اللي يسترني.

خلعَ عويضة الشال الذي على كتفه ووضعه على حفيظة وهو يرتجفُ من البكاء وأنفاسُهُ تتسارع، ثمَّ ربتَ على ذراعِها بخفةٍ وتركها نائمةً عليه وهو جالسٌ بجانبِها ينظرُ لها نظرة إشفاقٍ وعطفٍ ورحمة.

****

مرَّت ليلتان ولم يعرف أحدٌ أن حفيظة مختبئة في دوارِ والدها الملعون وهي نائمة في سكون وعويضة ينام على أريكة أخرى بجانبها، وبين الحين والآخر يحاول أن يطمئن عليها أو يسقيها كوبًا من الماء، وبعد فجر

الليلة الثالثة سـمع عويضـة صـوت أحدهم يقتربُ من الدوار فَهَّم من مكانه بهدوء محاولًا عدم إزعاج حفيظة وتقدم ناحية النافذة و بالفعل وجد شخصًا يتقدمُ في اتجاه بـاب الـدوار ولكن خطواتـه يتملّكهـا الخوف والتردّدُ ويتلفتُ حول نفسـه كثيرًا، فحاولَ عويضـة أن يسـرعَ ويسبقه قبل أن يطرق على الباب ويفزع حفيظة النائمة في سـباتها الهادئ، وبالفعل سـبقه لباب الدوار وفتحه ليجد من يقع على الأرض من شـدّة المفاجأة، فيدقّق عويضـة في ملامح هذا الشـخص الضـخم الذي سـقط فزعًا من فتحه لباب الدوار قبل أن يطرقه هو، ليجده درديري شـيخ الغفر الغارق في عرقه الذي يحاول أن يقف وهو يلملِمُ من نفسـه قليلًا ويعيد ما بقى من شخصيته الصارمة التي ضاعت مع تلك السقطة ومد يده مرتعشًا بورقة لعويضة قائلًا:

- إشارة من المركز يا حاج عويضة

فتملَّكَ القلقُ من عويضـة فحاول أن يسـألَه في هدوء حتى يقلّل من توتره الواضح:

- فيها إيه الإشارة؟ قولي وحياة أبوك إيه العبارة؟ إنت عارف يا شيخ الغفر أني ما بعرفش أقرا.

شعر درديري بأهميته النوعية وعاد إليهِ القليلُ من ثقتِه في نفسه وأمسكَ الورقةَ وفتح طيّاتها وبدأ في القراءة:

- الإشارة بتقول...

تلعثم درديري قليلًا وظلّتْ عيناه تنظر إلى عويضــة ثمَّ تعودُ خوفًا من مكتوب بالورقة ثم أردف في رعشـــةٍ وتردُّدٍ محاولًا رسم ملامح الحزن على وجهه:

- إيه ده.. لا حول و لا قوة إلا بالله.. عبد العال ابنك يا ولداه.. لقوا جثته ملقاه.. على شـــط قُرب إيطاليا.. وباعتين علشان تستلم جثته.. عشان تحضر دفنته.. لكن في الأول لازم تدفع رسوم الشحن والسفر وإلا حيدفن هناك.. ربنا يصبرك يا حاج على ما بلاك.

- وأنا أجيب الفلوس دي منين؟ يعني إيه أســـيب حتة مني تدفن بعيد عني.. دا الكبير أول فرحتي.. أه يا عبد العال يا ولدي.. أه يا اللي كنت سندي.. والعمدة

خـالـه وأمـه وأخوه عرفوا بـالموضــــوع ده يمكن يساعدوا هما ويدفعوا؟

- للأسـف لسـه جاي من عندهم وهما فعلًا رافضـين يدفعوا أيتوها حاجة.. بيقولوا إنهم اتبروا منه.. بعد ما جاب العار للعمدة الكبير ولوث اسمه.. لما هرب مع البـت فرحــة.. هو اختــار طريقـه وهمـا مش حيتحمّلوا تكاليف عاره.

لم يتمالك عويضة أعصابه وصرخ مناديًا:

- يـا عبـد العـال يـا ولـدي فوت أبوك لوحـده.. كنـت دراعي اليمين اللي راحت في غيبتك.. عكازي اللي كنـت بتعكز عليـه.. روحـه فيـا وروحـي فيـه.. لازم ترجع وتـدفن هنـا مُعزز مُكرم في مـدافن أهلـك.. تلاقي اللي يواســـيك في وحـدتـك في قبرك.. بس أجيب منين يا شيخ الخفر.. بعد ما الواحد اتفقر؟

نظر لـه درديري كـأنـه كـان ينتظر منـه تلك اللحظة من بداية الحديث فدنا منه بحرصٍ وهمسَ قائلًا:

- أنا عندي الخلاص.. بس حاتتعب معاه يا سيد الناس.

- أنا من إيدك دي لإيدك دي، بس أشـــوف عبد العال بعيني حتى لو جِتـة ولا إنــه يـدفن في أرض غير أرضي.. ولو عايزين ياخدوني بداله أنا مَرضي.

حك درديري صـــوابعَ يده أســـفلَ ذقنِهِ وهو يقول في همس:

- تبيع كليتك يا حاج؟ تجيبلك قرشـين حلوين.. زنقتك حتتفك.. وتدفع تمن جثة عبد العال وترجعلك في يومين.

- أبيع كليتي؟!

قالها عويضة متسائلًا وهو ينظر لعين درديري المتلهفة لمعرفة ردّه، ثم نظر إلى الأرض مُجيبًا:

- عشــان أســتر جثتك يا عبد العال.. أبيع حتى جثتي كلها في الحال.

- خلاص ميعادنا النهاردة بعد صـلاة العشـا .. حاجي أخدك عشان نلحق نروح ونرجع ويبقى في الدرى.

- منتظرك بإذن الله.

عاد شيخ الخفر أدراجه وهو يتلفت يمينًا ويسارًا وأغلق عويضــة باب الدوار في هَمٍّ وحزنٍ وهو يقول: "قل لن يصـيبَنا إلا ما كتبَ الله لنا.. الحمد لله"، ففوجئ بحفيظة التي كانت تختبئ خلف إحدى الطاولات تخرج وتتقدم منه قائلة في توتر ورهبة وتلعثم:

- إيه في إيه؟ الراجل دا جاي ليه؟ عايز منك إيه؟ والورقة اللي معاه تخص إيه؟

- دا جاي عشان...

توقف عويضة قليلًا ثم أردف قائلًا في حسرةٍ:

- إنتي في إيه ولا إيه؟ اطمّني مش حاجة تخصــك يا بنتي.. خشــي ريحي ماحدش عرف إنك مســتخبيه عندي.

وصــل درديري إلى الطريق العمومي في نهاية أرض عويضـــة، تلك الأرض الملعونة، وهو يلتقط أنفاســه ويحمد ربه أنه نجى من لعنة هذا الرجل فركض مبتعدًا حتى وقف أمام سيارةٍ سوداء كانت تقفُ بعيدًا عن مدى نظر دوار عويضـــة لينزل الزجاج الخلفي للســيارة

وينحني درديري أمـامـه وهو يتلهـث من أثر ركضــــه محدّثًا من بداخل السيارة:

- كله تمام.. العِجل سَلم واستسلم.. عويضة وافق يبيع كليته.. ولو كنت قولتله إنها ماتكفيش المصـــاريف.. كان حيعرض عليا باقي جتته.. النهاردة بعد العشـــا حانتقابل وأســلمه بنفســي لجنابك.. تؤمرني بحاجة تانية يا جناب العمدة.. أنا خدامك.

- الله ينور عليك يا شيخ الخفر

****

فتح عويضـة باب الدوار بخفةٍ وهدوء حتى لا تشعر به حفيظـة وتســـتيقظ وأغلقـه خلفـه برفق ثم التفت ليجد درديري يقف على الطريق العمومي في نهـايـة أرض دواره يلوِّحُ له بيدِهِ، فغرسَ عكازَهُ في طين أرضِهِ وبدأ السيرَ نحوه وما أن اقترب من دريري حتى سبقه بقوله:

- الله ينوّر عليك أعم الحاج عويضة.. مظبوط وجاي في ميعادك بالدقيقة.. يلا بينا.. لكن لازم تلبس دي على عينيك دي أوامر وأنا عبد المأمور يعني حابقى مين.. الناس اللي إحنا رايحينلهم هما اللي شارطين.. إن اللي يجي يكون مغطي عينيه ويرجع متغطي.. مش حابين حد يعرف مكانهم فين.. ولازم نسمع كلامهم عشان الليلة تعدي.

- غطي غطي احنا ما باليد حيلة.

وضع درديري عِصابةً على عين عويضة وعندما تأكد من أنه لا يرى أشار بيده لسيارة كانت تقف بعيدًا طافئة أنوارها فأدرت محركها وأضاءت أنوارها وتقدّمت منهما حتى وقفت أمامهما، فزج الدرديري بعويضة داخل السيارة، حاول عويضة أن يدركَ ما هو مُقدمٌ عليه، وانخرطت السيارة في أراضي زراعيّة كثيرة وتعمّدَ السائقُ أن يدورَ حول المكان المقصود حتى لا يعرفَ عويضة أن المركز الصحي قريبٌ جدًا من دواره وبالفعل شعر عويضة أنه أصبح خارج البلد من

طول الفترة الزمنية التي أخذتها السيارة حتى توقفت السيارة وأمسك درديري بيد عويضة وجذبه قائلًا:

- خلاص وصلنا يا عويضة اسند عليا هات يدك.

وبالفعل خرج عويضة من السيارة متعكزًا على يد درديري الذي أدخله المركز الصحيّ من الباب الخلفيّ وكان في انتظاره العمدة وإسماعيل التمرجي مساعد الطبيب جلال، أشار العمدة إلى درديري بألا يتحدث معه، فهو لا يريد أن يراه عويضة فأمالَ درديري رأسه متفهّمًا ودخل بعويضة إلى الداخل وخلفه إسماعيل الذي كان أعدَّ غرفة العمليات الخلفية لتكون جاهزةً لعملية الليلة، فأشار إسماعيل بيده لدرديري ليجلسه على سرير العمليات ويضعه عليه دون مقاومةٍ من عويضة مسحوبًا بيده كأنه نجعةٌ مستسلمةٌ في يد راعي غنم، وبعد أن وضع إسماعيل على وجهه قناعًا يُخفيه حتى لا يعرفه عويضة، وعندما انتهى رفع العِصابة من على عين عويضة الذي بدوره ظلَّ بيديه في عينيه ثم فتحهما ليجد نفسه في غرفةٍ صغيرةٍ قليلة الرضادة مليئةٍ بالمعدات الطبيّة وهو يجلس على سرير

بمنتصفها وبجواره يقف شخصٌ يرتدي معطفًا أبيضًا ويرتدي قناعًا على وجهه وخلفه يقفُ درديري، هنا استدار المقنَّعُ وهو يقول له:

- ارتاح يا حاج الموضوع مش حاياخد وقت.. العملية مابتكملش ساعتين على بعض.. وأنت حاتنام فيهم ومش حاتحس بيهم.

فمدد عويضة جسده على السرير الطبيّ ليعودَ له وهو يحمل حقنةً صغيرةً ويمسكُ بذراع عويضة الذي بدأ القلق يدبُّ في قلبه قليلًا، لكن صورة عبد العال وهو ملقى على رملة الشاطئ التي يتخيلها جعلته يقوى مرة أخرى ويبتعد القلق عنه ليجدَ أن إسماعيل من خلف قناعه يُخرجُ سن الحقنة من ذراعه وبدأ يشعر بالخمول والثِّقل في رأسه يزداد رويدًا رويدًا حتى أظلمت الغرفةُ من حوله بشكلٍ كامل.

وعلى محطة القطار كان تقاوي يقفُ متّكئًا على إحدى الأعمدة ينتظر القطار ليأخذَه بعيدًا عن تلك القرية التي كانت سبب تعاسته طيلة حياته، ولكنه انتقم ممن فيها وأخذ التعويضَ الذي يرضيه فتفاجأ بحركةٍ غريبةٍ

بدأت في المحطة، عساكر يزداد عددها عن عشرين عسكري وفي وسطهم ظابط برتبة نقيب ينتقي الكثير من الأهالي في المحطة ويسألهم عن معرفتهم بصاحبِ صورة في يده، شعر تقاوي بالخوف فحمل حقائبه ودار إلى الخلف ليبتعدَ قليلًا عن هذا المكان فربما تكون صورته والشرطة علمت بما فعله وقدِمَتْ للبحث عنه ولكنه ما أن وصل للدرج حتى سمع من يربط على كتفِهِ متسائلًا:

- إنت يابني من غير كلام كتير رد على طول.. تعرف صاحبة الصورة دي أو شوفتها هنا خلال اليومين اللي فاتوا دول؟

التفتَ تقاوي بالعًا ريقَهُ في توترٍ ليجده الضابطُ ممسكًا في يده صورة فتاة أدركَ إنها صورة حفيظة من النظرة الأولى ولكن ظلَّ يتسائلُ بين نفسه ما الذي يعيدها لتلك القرية الآن ولماذا تبحث عنها الشرطة بهذا الشكل المبالغ فيه؟ قاطعه صيحة الظابط فيه قائلًا:

- رد يا ابني عمال تتنح وتسرح

جاءت لحظة انتقام تقاوي جاهزة أمامه دون عناء فأجاب الظابط قائلًا:

- دي حفيظة بنت الحاج عويضة الملعون وبنت أخت العمدة.. خير يا باشا هي عملت إيه لكل ده؟

- حفيظة عويضة إحنا عارفين.. في ناس قالت إنها شافتها هنا من كام يوم تفتكر تكون فين؟

- لو عملت حاجة خطيرة مافيش أأمن من دوار العمدة تتحامى فيه.. بس على حسب هي عملت يا باشا إيه؟

- قتلت جوزها يوم الصباحية وهربانة من ساعتها.. وكلامك صح مافيش زي العمدة عشان يكون حمايتها.

كانت إجابة الظابط على تقاوي كالصاعقة عليه، ظل واقفًا حتى بعد أن تركه الظابط ورحل ولكنه استوعب الموقف سريعًا وحمل الحقيبة على كتفه وترك أقدام للريح يتسابق معها حتى وصل بدوار عويضة الملعون

وتسلق شجرته المعتادة ودلف للداخل ونزل الدرج ليجد حفيظة نائمة على الاريكة كما توقع ولكن لاحظ تغيرها الشــديد وجســدها الواهن وهالتها التي انطفأت فاقترب منها فلمس خصلات من شعرها خلسةً واستنشقها وهو مغمض عينيه ثم قبَّلَ تلك الخصــلات وعاد إلى الخلف ليمســـكَ يديها الناعمة الباردة، وفي تلك اللحظة اســـتيقظت حفيظة وتفاجأت بتقاوي فقفزت إلى الخلف وهي تصـــرخ فزعًا فتقهقر تقاوي إلى الخلف محاولًا تهدئتها قائلًا:

- حفيظة.. حفيظة.. أنا تقاوي.. جي ألحقك البوليس بيدور عليكي.. وأنا قولتله إنك مســـتخبية في دوار العمودية.. لاني حافظك وعارفك وعارف إنك لما تخافي اوي بيكون ابوكِ عويضـــة أقرب وأحن ليكِ من امك صـــبرية.. يلا يا حفيظة اســـمعي كلامي عندي مكان حاتكوني فيه محمية.

نظرت له حفيظة وعيناها يملأهما الرعب محاولةً تصـــديقه ومع إلحاحِهِ لها لم تنطق بكلمة ومدت يديها لتمســـك يده التي مدَّها إليها كثيرًا وخرجت معه خارج

الدوار تتبعه وهو يأخذها بين الأراضي بعيدًا عن الطرق الرئيسية حتى لا يرها أحدٌ وهي تتبعه دون مقاومة، حتى وصلا إلى عشته الصغيرة وفتح بابها مبتسمًا وقال لها مرحبًا:

- اتفضلي يا ست الناس يا ست الكل.. عشتي حاجة مش قد المقام.. بس كانت على قدي زي الفل.. اتفضلي نوريها يا قمر التمام.

****

طرق إســـماعيل بـاب غرفـة الـدكتور جلال فـأذن لـه الأخير بالدخول فوجد العمدة يجلس أمام الدكتور جلال فقال:

- غرفـة العمليـات جاهزة يا دكتور ..والمريض جاهز ومتخدّر على السرير.

- طـب روح وأنـا جـاي وراك ربنـا يســـتر.. العمـدة مشرفنا النهاردة اللهم ما اجعله خير.

ضحك العمدة مقهقهًا ثم قال وهو ينظر لجلال في عينيه متحديًا:

- أصـــل حـالـة النهـاردة حـالـة خاصــــة على الأخر.. وفرحتي بيها النهاردة مالهاش أول ولا آخر.

نظر لـه جلال متعجبًـا لردةِ فعلِـهِ غير المعتـادة فســـأله مستفسرًا:

- والحالة دي حاننهش منها المرة دي إيه؟ ولا شــكلك عايزني أنهشها كلها ونعمل حفلة عليه؟

- والله كان نفســـي مخبيش عليك.. بس هو اتفق معايا على كليته وبس.. فاتوصى بيه الله خليك.

نظر له جلال وقد اشـــتد اســـتغرابه وجهله بما يحدث، فتركَ العمدة وذهبَ إلى غرفة العمليات الخلفية وارتدى الزي المعقم وفي يده القفازات وأمسـكَ المشـرطَ ودون أن ينظرَ إلى وجـه المريض النـائم على جـانبـه الأيمن ووجههُ الناحية الأخرى، شك ظهره وبدأ في استئصال الكلية اليسرى وأمامه إسماعيل يظهر عليه التوتر وهو يناوله الأدوات الطبية وينظف عرقه حتى أعطاه الكِليَةَ ليضـعَها في الصـندوقِ الحافظ المخصّـص للتبريد وبدأ في خياطة فتحة العملية ولكن شـعر بأن المريضَ يتمتمُ ويحركُ أناملَ يده، فصرخَ جلال في إسماعيل قائلًا:

- دا شكله حيفوق.. إنت مادتلوش بينج كفاية ولا إيه؟

- والله مـديلـه بينج يهـده بس هو اللي ملعون زي مـا بيقولوا عليه

- ملعون؟؟

وقعت تلك الكلمة على جلال كالصـــاعقة فمدَّ يده ليميل برأس المريض ناحيته ليجده والده عويضــة تكاد عينيه تُفتح حتى لمحته وتمتم بحروف شـعر جلال، إنه ينادي عليه باســـمه، فرجع إلى الخلف مبتعدًا عنه وهو ينظر لـه في رعب وذهول ليجده قد عـاد إلى ســـباتـه مرة أخرى، ثم نظر إلى إســـمـاعيـل الـذي ظـهرت عليـه علامات الخوفِ وحاولَ الخروج من الغرفة هربًا فتقدم له مسرعًا وأمسك برقبته وثبته في الحائط وعينيه تشع غضــبًا واحمرارًا، وجحظت عينا إســماعيل من شــدة خنقِ جلال له حتى نطق بأعجوبة قائلًا بصعوبة:

- أنا ماليش دعوة العمدة هو اللي أمرني وأنا نفذت.

- العمدة؟

قالها جلال وهو يفلت إسماعيل من قبضته رويدًا رويدًا ثم ألقي به على الأرض وركله بقدمه، وخرج مســرعًا إلى خارج المركز الصحي ليجد سيارة العمدة ما زالت موجودة بجانبِ ســـيارته فعاد إلى الداخل مرة أخرى ودخل مكتبه ليجد العمدة جالسًـــا على مقعد مكتبه يدور به يمينًا ويسارًا مستمتعًا وهذا ما أثار هياج جلال أكثر

فأســـرع في مهاجمتـه ليجد العمدة رافعًا يده ممســـكًا مســـدسًـــا ويوجهـه في وجـه جلال الـذي توقف عنـد ملاحظته له وثبت مكانه ثم أردف العمدة قائلًا:

- إيـه يـا دكتور إحنـا حـاندخل الشـــغل في العواطف والمشـــاكل العائلية؟ الشـــغل شـــغل.. اهدى كده يا دكتور بلاش تضيعك العصبية.

- تغفلني وتخليني أستأصـل كلية أبويا وتقولي اهدى.. إيه الجبروت والكراهية والبرود اللي فيك إنت دا.

- قلبك عليه أوي يعني؟!

قالها العمدة ساخرًا ثم وقف وتقدم ناحيته ممسكًا في يده المسدس وبنبرة صوت هادئ قال:

- اهدى يا دكتور وإسمعني.

أعاد المســـدسَ تحت مِعطَفِه مرةً أخرى وأمســـك بيدِ جلال ويســـحبه ليجلس على المقعد ويجلس هو أمامه، ويخرج من جيبـه علبـة لفـائف تبغ ويشـــعـل إحـداهمـا

منتظر هدوء جلال ليكمل حديثة وحين شعر أنه أصبح ثابتًا أكثر أردف قائلًا:

- أبوك عارف إنه جي يبيع كليته.. يعني رجالتي مش مخدرينه وجابوه هنا ورامته.. وبعدين من أمتى كان يهمك أو كنت بتفكر بحاله ودنيته.. والبيزنس اللي أحنا بنعمله مايعرفش خالي وعمي وابويا وجتته.. وأنا مستعد أسيبلك نص نصيبي من كلية أبوك عشان أراضيك بس انت عارف.

نظرَ له جلال مفكرًا ثم قام من جلسته ودار خلف مكتبه وعاد ليجلس على كرسيه الخاص بالمكتب وقال:

- آسف.

نظر العمدة بغرابة وذهول حتى أكمل جلال حديثه قائلًا:

- آسف.. نصيبك كله يا عمدة بالتمام.. عشان بعد كده تتعمل كل حاجة على نور.. والحالة تشيلوها من هنا وترجع تاني دوارها على طول.. ودا آخر كلام.

شد العمدة على أسنانه غيظًا وقال وهو يبتسمُ ابتسامة صفراء باهتة:

- حاضر أوامرك تمام.

تفقدت حفيظة عِشة تقاوي بعشوائية ما فيها وخلفها تقاوي تبرق عيناه من الفرحة وهو يتفحص جسدَها من الخلف بعينيه فتستديرُ حفيظة للخلف فتلاحظ نظرات تقاوي لها نظرات رأتها من فترة ليست ببعيدة، نظرات طمع في شيء تملكه ولا يملكه غيرها، حاولت أن تتجه ناحية الباب الذي لم تلاحظ أنه أُغلق لكن تحرَّك تقاوي جانبًا ليعترض طريقها، حاولتْ مرةً يمينًا ومرة يساراً لكن دون فائدة فظلت تلتفت حولها لعلها تجد مخرجًا آخر، لكن للأسف النوافذ مغلقة فلقد كان تقاوي على وشك الرحيل ولقد أحكم إغلاقه لها، بدأ تقاوي في خلع قميصه من عليه وأنفاسه تزداد سرعتها ولعابه يتسابق داخل فمه وحفيظة تبحث عن أي شيء تدافع بيها عن نفسها حتى باغتها تقاوي وهجم عليها ممسكًا يديها والصقها بالحائط فركلته حفيظة اسفل بطنه فأنحنى أمامها صارخًا من شدة ألم.

حاولت حينها اجتيازه بسرعة لكنه أمسك بقدمها فتعركلت به ثمَّ صدمت يداها بصندوقٍ خشبيٍ صغير بجانب الفراش ليقع وتتبعثر محتوياته أسفلها وتقع هي بعدها بجانب الفراش، فاستغل تقاوي ما حدث وقفز عليها محاولًا التعدي عليها وحفيظة تحاولُ أن تبعده بكل قوتها حتى لاحظت لمعة شيء بجانبها فتنظر له لتجده السكين الصغير الذي سرقه تقاوي من المولد واستخدمه في جرح والدها ليهربَ من محاولة قتلها الفاشلة، مدت يديها وامسكت به ثم عادت تنظر لتقاوي الذي اقترب أن يحكم سيطرته عليها وعينيه تجحظ غضبًا فهوت عليه بالسكين وطعنته في رقبته عدة طعنات لتنفجر وتنهمر الدماء عليها وهي تصرخ فيه وتسبه، ثم دفعته من عليها جثةً هامدةً لا يتحرك فيها إلا سيلان الدماء المنفجر من رقبته، وقفت وهي تنظر له بغضب ثم بصقت عليه وألقت السكين بعيدًا وفتحت باب العشة وخرجت ووجها ويداها تتساقط منهما الدماء وتسير وهي غير متزنة هائمة على وجهها وما أن اقترب من إحدى الطرق الرئيسية والتي كان بالصدفة يسير عليها أحد الأهالي ذاهبًا إلى موقع

حراسته الليلية ورأها بهذه الصورة أمامه، خرجت له من خلف شجرةٍ على جانب الطريق ليسقطَ على الأرض فزعًا ثم نهض مسرعًا وركض عائدًا من حيث أتى صارخًا يقول:

- النداهة ظهرت.. النداهة خرجت.

****

شعر عويضة بأن الأرض تهتزُّ من تحتهِ ففتحَ عينيه لتتأكد شكوكه بالفعل فكل الأشياء المعلقة على الحوائط والجدران تتراقص يمينًا ويسارًا إنه زلزال يضرب قريته فأمسك بعكازه ومن بلع سبحته المميزة وتقدم خائفًا متوجسًا من تأثير هذا الزلزال على هذا الدوار المتهالك، خرج من باب الدوار ليفاجأ بصدمة كبيرة أن سبب هذا الزلزال هو سيارات عملاقة لهدم وإزالة العقارات وقوات من الشرطة تحيط بتلك السيارت ويتوسطهم ظابط في رتبة رائد يتحدث مع هارون بيه

والذي يشـــير عليه للظابط فيتقدم ناحيته في هدوء وهو يخاطب العساكر التي معه قائلًا:

- يلا يا عســكري أنت و هو شــيلوا القرف دا.. هدوا البيت عايزه في سوا الأرض.. مين دا؟

ما أن سمع ما قاله عويضة حتى أثار ذلك غضبه وتقدم منه قائلًا في حدة:

- أنت مين قالك تعمل كدا؟ دي أرضـــي و دواري.. وماليش سكن غيره.. دا آخر أختياري.

تقدم الظابط حتى وصــلا الاثنان في منتصــف الأرض والســيارات خلفه مســتعدةٌ لتنفيذِ أوامر الظابطِ فيحاولُ أن يحدّثه بطريقة أخف حدة وذلك بعدما اقترب ورأى حالته التي يرثى لها قائلًا:

- لا يا حاج دا شــيء إجباري.. صــاحب الأرض اللي أنت واقف عليها أخد حكم باستلام كل شيء فيها.. و هدم الدوار و المزرعة والســـور اللي حوليها.. بالبلدوزر.. وسع كدا يا حاج خلينا نشوف شغلنا قبل النهار مايروح مننا.

صرخ عويضة فيه بغضبٍ يتلون بالحسرة:

- أني صاحب الأرض و اللي جواها و اللي حواليها.. مش راح أتحتح منيها.. دي اللي بقيالي.. بعد ما راحوا عيالي و مالي.. دي أرضي و دواري.. مين صاحبها غيري .

ظهر صوت هارون بيه قادمًا من خلف الظابط وتقدم بخطى ثابتة ناحيتهما قائلًا في غرورٍ وثقةٍ واضحةٍ ودخان غليونهِ يتطايرُ من أمام وجهه:

- أنا يا عويضة.. ابنك الكبير الغالي.. عبد العال باعهالي.. بس اطّمن يا عويضة ..مباعكش بالرخيص باعك بالغالي.. ابنك ناصح ..واعي وفالح ..طلع أحسن منك أخد الفلوس.. وطلب مني طلب نفذتهوله.. طلب السفر جبتهوله.. دا آخر رد الجميل يا عويضة؟!

- يا وقعتك اللي بقت سودا!

قالها عويضة وهو يسقطُ جالسًا على الأرض من الصدمة، نظر له هارون بيه بتكبر ونشوى النصر

تسـيطر عليه، ثم التفت إلى الظابط وهو يصـيح فيه آمرًا:

- يلا يا حضـرة الظابط نفذ الأمر اللي في إيدك.. ولا عايزني أتصل باللواء سيدك.

- حاضـر حاضـر.. تحت أمر معاليك.. القوة كلها تحت إيديك.

قالها الظابط وهو يعطي التحية العسـكرية لهارون بيه ثم صـاح ليأمر الجنود والسـيارات بإنهاء ما أتت من أجله، ولكنه تفاجأ بأن عويضة يقطع السبحة التي كانت في يده دائمًا بأسـنانه، وهي سـبحة أهداها له الشـيخ صـابح المعداوي، انفرطَت حباتُها على الأرض بجانبه دون أن يبالي بها ثم وقفَ وعينه تشـعُّ غضـبًا وتقدم مسرعًا في اتجاه هارون بيه فانقض عليه الظابط مانعًا إياه من التقدم والتفت ليطمئن هارون بيه الذي أمال رأسـه محييًا الظابط على ما فعله، فاسـتغل عويضـة غفلة الظابط تلك ومدَّ يده وأخرج مسـدس الظابط من حافظته المعلقةِ بحزامهِ وأطلقَ الرصـاصَ على هارون بيه وأصابه بثلاث طلقات حتى قفز الظابط عليه وسقطا

أرضًـــا حتى يســـتطيع أن يســـيطرَ عليه ويأخذَ منه ما سرقه ناظرًا لعويضة بغضبٍ، لم يبتعد نظره عن جسد هارون بيه الواهن أمامه على الأرض وهو يردّد قوله:

- منك لله.. منك لله .

فتح العمدة باب دواره مســـرعًا من فرحته ليجدَ أخته صـــبرية والدكتور جلال جالســـيْن فزادت ســـعادتُه لوجودهما معًا ليخبرهما بما يســـعده كل هذه الســـعادة، وشعرت صبرية بما عليه فقالت له بتعجّبٍ:

- مالك يا عمدة إيه اللي مفرحك كده ومخلي وشـــك منور بالشكل ده؟

- خبر يتساهل فرحتي وأبو فرحتي دي كمان.

- خير يا أخويا؟ فرحنا دا أحنا مفرحناش من زمان.

نظر العمدة إلى جلال الذي شعر فعلًا بفضولٍ لمعرفةِ سبب ما عليه العمدة وقال له في حدة:

- خير يا خالي؟

جلس العمدة على المقعد الذي أمامهما قائلًا بنشوة ظاهرة:

- عويضة قتل هارون بيه وهو بيستلم منه الأرض قدام قوات الشرطة.. يعني خلصنا منه نهائيًا ومن غير مايتسبب لنا في أي ورطة.

نظر جلال لوالدته وابتسما فرحًا فأشأر جلال لها فمالت له إيجابًا وهو يقول:

- لا لا لا.. شوف حظك ياخالي لازم تسمع.. أمي عملالك عصير برتقان بالنعناع اللي بتحبه عشان تشربه لما ترجع.. مافيش أحلى من دي مناسبة.. يلا ياما خلينا نفرح شوية صوبيله حبة.

- من عينيا هو أنا عندي أغلى من أخويا!

قالتها صبرية وهي متجهه ناحية المطبخ لتعودَ حاملةً كوبًا كبيرًا من العصير يتناوله العمدة بنهَمٍ واستمتاع وهو ينظر لصبرية وجلال اللذين يتابعهما وهما يرسمان ابتسامة حتى شعر بدوار خفيف يتملك جسده وأنفاسه تتباطأ وتساقط العرق من كل خليةٍ فيه ثم شعر

ببرودةٍ بدأت باطرافه ثم انتشــرت في باقي جســده كل ذلك وعضلة لسانه شديدة الجفاف لم يستطع أن يستغيثَ بأحدٍ ولكنه قاوم واســتطاع أن يفتح عينيه قليلًا، فوجد صـبرية وجلال يقفان أمامه مبتسـمين، حاول أن ينادي عليهم لكن لم تسـعفه عضــلة لســانه فلقد ازدادت جفافًا ولكن ظلت حسة السمع شبه مدركة لما يحدث وسمعت ما كان يقوله جلال لوالدته صبرية:

- هي دقيقتين بالكتير يا حجة وعضـــلة القلب حاتقف ويموت.. والعمدة لا ليه عيل ولا تيّل يعني ثروته من إيدينا مش حاتفوت.

ثم شــعر بشـــهقة خارجة من جســـده توقفت بعدها كل خلايا الإدارك لديه.

****

مرت ستة أشهر على حادثة قتل عويضة لهارون بيه والتي جعلت عويضة يقف خلف قضبان المحكمة ينتظر وجهة نظر القاضي فيما فعل، لم يحضر لجلسة محاكمته أحد سوى شيخ الغفر دريري ومحامي المجني عليه هارون بيه وبعض الأفراد من عائلته، قاعة المحكمة تكتد تكون خاوية حتى يدخل الحاجب قائلًا في قوة وحدة:

- محكمة

يدخل بعدها القاضي واثنان من مستشاريه ليجلسوا على مقاعدهم ثم يشير للحاجب بقوله:

- نادي على القضية.
- القضية رقم ٢٠١٠ جنايات.. المتهم عويضة أبو الحمد مسعود خميس.

التفت القاضي ناحية وكيل النيابة المسؤول عن ملف القضية ومنحه الحديث بقوله:

- الرجاء بتفضل سيادة ممثل الادعاء بالحديث.

يقف وكيل النيابة في صرامةٍ وحدة قائلًا:

- سـيدي القاضــي.. حضــرات المســتشــارين.. هذا المتهم.. ألم بأبشــع الجرائم قسـوة.. القتل مع سـبق الأصــــرار في وجود الشــرطة.. ولم يهب بل كان شيطانه الأقوى.. ولذا.. أطالب من سيادتكم.. بدون أي شفقة قد تأخذكم به.. فلا تنخدعوا بمظهره وما به من إعاقات.. فهذا هو أيضًــا الجســد الذي ارتكب جريمته ظنًا منه أنه يستطيع الإفلات.. ولذلك أطالبُ عدالتكم بالحكم عليه بالإعدام.. فالذي فعله ليس بهيّنٍ أو سـهل ..حتى يكونَ عبرةً لمن لا يعتبِر.. و شكرًا .

يميل القاضــي برأســه محييًا وكيل النيابة ثم يلتفت باحثًا بعينه في القاعة ويسأل:

- فليتفضل الدفاع .

عم الصــمتُ القاعةَ فلم يأتِ لعويضــة أحدٌ للدفاع عنه، فمن يدافع عن ملعونٍ قاتل، فوقفَ عويضـــة مشـــيرًا للقاضي وهو يقول:

- مافيش دفاع.. تسـمح لي أكون أنا الدفاع.. و أبرر مصـيري اللي ضـاع.. و االلي جرالي من ألم وأوجاع.. وصلتني للقفص دا.

نظر له القاضـي ثم تشـاور مع المستشـاريْن فعاد قائلًا بعد برهةٍ من الزمن:

- بعد ثبوت الجدية و الاحترام.. قرارنا منحك الكلام.

حاول عويضة أن يذهبَ إلى آخر قفص الاتهام ليقتربَ قليلًا من منصةِ المحكمةِ ويأخذ نفسًا ويبدأ حديثَه:

- أني حأحكي حكايتي في وقت قليل.. جايز هي تكون لبراءتي الدليل.. العبد الفقير اللي قدامك.. كان بيتعمله ألف حساب.. كلمته بتمشـي فوق الرقاب.. بس اللعنة أو القدر ولا مانا عارف أسـميه إيه.. في أرضـي النار مسـكت فيها وكأنهم اتنين عشـاق في الليل اتقابلوا.. ومزرعتي من المواشـي والدواجن هجم عليهم الفيران نهشـوا بطونهم وسـابوهم وياريتهم اتاكلوا.. كل اللي حيلتي كل ثروتي حتى عيلتي كلهم راحوا.. إكده؟ إكده راحوا؟!

اللي كان ليه في الفلاحة شغلانة.. بعد ما راح المال اللي معانا.. و الأرض اللي حدانا.. باع حِجة الدوار.. وهزب وغار.. ولما رجعلي رجعلي خبر إنه بقى جثة.. سفنجة لسه.. شاربة من مية البحر هموم وهموم.. وعشان الجثة ترجع بِعت كليتي في نفس اليوم.. وأهو راح و غيره معاه راحوا.. إكده؟ إكده راحوا؟!

واللي كان ليه في العلم.. طموح و حلم.. ووظيفة من الحكومة ماهو جايب أعلى تقدير.. الوظيفة تأخدها طبعًا الوسطى وهو يدوق أكبر تقدير.. ركن في قهوة العواطلية.. و العواطلية عودوه على الإدمان.. لحد ما طمع في جرعة زيادة كمان.. و مات ودمه هربان منه على يدي.. بعد ما حاول يسرقني.. والعواطلية سابوه و راحوا.. إكده؟ إكده راحوا؟!

وبنتي اللي كان خُطّابها طوابير.. وعِرسانها كتير.. في أول لحظة فقري و ضعفي.. مالجتهاش في صفي.. اتجوزت أول عريس بدون تفكير.. مدام حايعيشها في حرير.. و سافرت وياه.. و داقت المر

معاه.. ذل و مهانة.. و دوس على الكرامة.. ضربها واغتصبها قدام أهله.. فضحها وعرى لحمها.. وكان فاكر دي الرجولة.. والرجولة والنخوة مالهاش وجود في دمه.. و بنتي يا بيه بنت أصل.. والذل عليها مش سهل.. والظلم وحش يا بيه.. ملقيتش قدامها غير القتل.. هربت تتحامى فيا.. و لما مالاقيتش الحماية هربت وراحت ويا اللي راحوا.. إكده؟ إكده راحوا؟!

حتي الزوجة.. حب عمري طلبت الطلاق وخلعتني.. وابني الدكتور الكبير اتبرأ خلاص مني.. واللي اتفضل من جتتي بينحت في صحتي.. واللي اتبقى من دا كله دواري.. طمعانين في دواري.. دا الشيء اللي بقالي.. و ياريته واخدينه بالحق.. بالسرقة والنهب.. دا الشيء اللي حيلتي.. قولي بقى أنت لو من عينتي.. راح تصبر.. صبرت والله يا سعادة البيه القاضي.. بس الصبر دا حيكون قد إيه.. ماكنتش عارف إني ملعون ولا صاحب كرامات وليا أنا ليه؟ ماكنتش عارف أنا ملعون ولا مُبتلى من ربنا ولازم أتوب.. حمدت ربي وصبرت.. وقلت يا

صبر أيوب.. بس سيدنا أيوب ربنا ابتلاه.. صبر.. بس بعد ما فاض بيه.. دعا ربه يشيل عنه و ينجيه.. وهو كان نبي.. وزمن الأنبياء بعد محمد (ص) انتهى.. وأني إنسان مش مطلوب مني أصبر زيها.. أيوب كان نبي.. وزمن الأنبياء انتهى.. وأني مش سيدنا أيوب ولا عمري حاكون نبي.. أيوب كان نبي.. وزمن الأنبياء انتهى.. وأني إنسان وطاقتي ليها حدَّها"

تلفَّت عازف البيانولا حولَه فوجدَ أن الأهالي نفرَت من حولِه فزعًا فتوقفَ عن العزف والحكي وهو غيرُ مدركٍ لماذا كل هذا الذّعر؟ الجميع انتشروا وركضوا في جميع الاتجاهات واختفوا في سوادِ الليل الكاحل لا يرى شيئا أمامَهُ لا يلمسُهُ ضي القمر، فهَمَّ في جمع أدواته وغلقِ آلته وبدأ في حملها ليتفاجأ بقدوم شيءٍ ناحيتِه من بين الأشجار يقتربُ بخطواتٍ غير ثابتة حتى لامس ضي القمر جزءًا منه ليتّضحَ أنها سيدةٌ شعرُها ووجهُها مغطى بالدماء تبرق عيناها السوداوان وهي تنظر له غضبًا، تقتربُ منه ويداه ممدودان ناحيتَه

وتتسـاقطُ من أصـابِعِها الدماء، فسـمعَ أحدًا يصـرخُ من بعيد ويقول:

- النداهة ظهرت.. النداهة خرجت.

****

تمت بحمد الله

انتظروا العدد الثالث من سلسلة روايات

"عازف البيانولا" بعنوان

"انترفيـــو" (القدر والمصير)